

ببحث في
الوجود والعدم

اهداءات ٢٢٢

مقدمة

١. د عبد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

مصطفى محمود

بحث وف

الوجود والعدم

دار الغدوة - بيروت

حقوق الطبع محفوظة
لدار العودة

١٩٨٦

كورنيش المزرعة - بناية ريفيرا سنتر

تلفون : ٣١٠٨٤٠ - ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥

تلكس AWDA 23682 LE

ص.ب ١٤٦٢٨٤

التعرّف على ملك الملك





لو اجتمعت سلطات العالم على قلب رجل واحد لما استطاعت أن تغيره كرهاً .

ولو تحالف الحديد والنار والسجن والتهديد على سجين في زنزانة انفرادية لما استطاعت تلك القوى مجتمعة أن تجعل هذا السجين يحب ما لا يحب أو يكره ما لا يكره .

ربما استطاع السجن أن يقهر سجينه على التوقيع على ورقة بالإكراه . . ربما استطاع أن يرغمه على تقطيع الحجارة وأكل الحصى ربما استطاع أن يقطع لسانه ويتزع جلد له ولكنه لا ولن يستطيع أن يتزع ذرة كراهية من قلبه أو يبدل عوطفه قهراً .

فهناك في أعماق الأعماق روح أعتقها الله من كل القيود .
لا سلطان لأحد عليها .

حتى الشيطان يقول له الله :

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ » .

(الحجر : ٤٢)

والغاوون هم أولئك الذين اتبعوا الشيطان بإرادتهم وهواهم ودون سلطان منه .

ولهذا تعجز كل وسائل الإصلاح التي تعتمد على العنف والقهر والقوة .

وتفشل النظم التي تحاول تغيير المجتمعات بالوسائل البوليسية والأساليب القهرية .

لأن الحب لا يستخرج بالإرغام .

والشرف والنبيل والإخلاص والرحمة والمودة لا تولد بالكرباج ولا تصنع بقرار وزاري .

وإنما هي نبات رباني .

وينمو هذا النبات وينحضر ويثمر حينما تنفلق البذور في الطين ، وتخرج من التراب وتتوجه بأوراقها الخضراء إلى مصدر النور ومصدر الطاقة . . إلى شمس وجودها . . إلى ربها .

حينما يصبح كل واحد فينا مثل عباد شمس يتحرك معلق الأبصار لا يغفل عن خالقه لحظة . . أينما توجه ينادى قلبه . . ربى . . ربى . . فيجاوبه الصدى مع كل نبضة قلب . . لبيك عبرى . . أنا معك .

فلا مصدر للحياة والحب والخير إلا الله .

والله يقول :

« لا إله إلا أنا » .

(طه : ١٤)

لا حاكم غيرى . . لا فاعل سوى . . أنا وحدى الضار النافع

والعز المذل والباسط القابض والرافع الخافض والمحبي المميت .

أنا المالك وحدي

الملك والملكوت لي

والسماوات والأرضين لي

والغيب والشهادة لي .

والعزة لي

والجبروت لي

والقوة لي

والشفاعة لي

أنا الذي أغير ولا أغير .

ولا مهرب مني إلا إلى

وكل قوتك مني وحياتك مني وموابعك مني .

بي ترى وبني تسمع وبني تعقل ، وبني تحيا وبني تمشي وبني تهضم

طعامك وتشفي من أسقامك .

أنا الذي أروي وليس الماء . . وأنا الذي أشبع وليس الطعام . .

وإنما هي أسبابي أقمته لمشيتي إن شئت سقيتك وما ارتويت وأطعمتك

وما شبع .

وهذا هو التوحيد .

أول ما أنزل الله من علم على جميع الأنبياء .

فقال لمحمد عليه الصلاة والسلام .

« فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » . (محمد : ١٩)

وقالها لكل نبي ورسول من آدم إلى الخاتم .

وقال في حديثه القدسي :

« لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني
أمن عذابي » .

وجعل من هذه الوجدانية أساساً لكل شيء .

فهذه الوجدانية تتوحد الشخصية الإنسانية ، وتتوحد الأمم وتتوحد
الغاية وتتوحد القبلة ، وتتوحد الأهداف وتتوحد المسيرة .

وبهذه الوجدانية يزول الخوف فلا تعود النار ولا الحديد ولا سياط
الجلادين ولا جبروت الحكام لها حقيقة بذواتها إنما الكل جنوده
وأدوات مشيئته .

وهو يقول :

« فلا تخافوهم وخافون » .

(آل عمران : ١٧٥)

« فلا تخشوهم واخشوني » .

(البقرة : ١٥٠)

« لا إله إلا أنا » .

(طه : ١٤)

أنا الذي بيدي مقاليد كل شيء . . تخرج من عندي الأوامر
والمراسيم . . وتتنزل الصواعق . . وأرسل الرياح وأسقط المطر . . وأسلط
الجبارين بعضهم على بعض . . وأبعث أنبيائي هدى ورحمة .

وبهذا التوحيد يجتمع اهتمام الإنسان وتتوحد قبلته وتتوحد أشواقه

وتتنظم مشاعره وأفكاره كأنها الحبات سلكت خيطاً واحداً .
وهذا هو الأثر البنائي للتوحيد على الشخصية الإنسانية .
ولو عبد الإنسان أرباباً متعددين لتوزع اهتمامه فيما بينها وتشتت
وانقسم على نفسه ولتعددت وجهاته وانفرطت مشاعره وتضادت وتناقضت
ولم يجتمع على شيء ، وافتقد التركيز والراية الواحدة ولانقسمت بذلك
الأمم واختلفت وتناحرت كل منها تدافع عن ربها لتستعبد به غيرها
من الأمم .

فالوحدانية هي العمود الذي يحمل سقف الكون ويحمل سقف
الشخصية الإنسانية .

ويكاد يكون القرآن نشيداً توحيدياً يذكرنا بالوحدانية في كل
صفحة :

« قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ » .

(سورة الإخلاص)

« شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

(آل عمران : ١٨)

« وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ » .

(القصص : ٨٨)

« إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ » .

(النحل : ٢٢)

« وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّاي فَارْهَبُونَ » .

(النحل : ٥١)

وناقش القرآن هذه الوجدانية وأقام عليها البرهان . فلو تعددت الآلهة التي تحكم السموات والأرض لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، ولتعددت الأوامر الإلهية وتناقضت ، ولنازع الآلهة الصغار الآلهة الكبار ولا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ولفسد كل شيء :
« لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » .

(الأنبياء : ٢٢)

« مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

(المؤمنون : ٩١)

« قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » .

(الإسراء : ٤٢)

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ » .

(الزخرف : ١٥)

بل هو واحد أحد صمد لا يتجزأ . . لا مثل له ولا ضد ولا ند ولا بعض ولا شريك ولا رسم ولا كيف ولا كم ولا أين . . لم يحلل في الأشياء فيقال هو فيها كائن ولم يفترق عنها فيقال هو عنها بائن .

وهو كما قال عن نفسه :

« إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

(العنكبوت : ٦)

« إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

(إبراهيم : ٨)

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

(الشورى : ١١)

ومن أسند القدرة والرحمة والنعمة والجنة لغير الله فقد حرم نفسه منها عدلاً يوم القيامة ومكانه مع آلهة الوهم التي عبدها .
« إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » .

(المائدة : ٧٢)

« وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً » .

(النساء : ١١٦)

فالوحدانية صلب العقيدة وعمودها المتين وجبلها الوثيق ولا نجاة إلا باللجوء إلى ركنها وصخرتها . . فكل شيء هالك إلا وجهه .

وهو الحق وحده

المنفرد بالألوهية

المنفرد بجميع السلطات

المنفرد بالنفع والضرر .

ويسوق القرآن آيات عديدة على هذا الانفراد بالنفع والضرر .

« قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعاً » .

(المائدة : ٧٦)

ويلقن الله رسوله :

« قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » . (يونس : ٤٩)

« قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا » .

(الجن : ٢١)

« قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا »

(الفتح : ١١)

« وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ » . .

(يونس : ١٠٦)

« قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » .

(الرعد : ١٦)

« قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » .

(الإسراء : ٥٦)

« وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ » .

(يونس : ١٠٧)

« إِنْ يَرِدْكَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا » . .

(يس : ٢٣)

ويقول عن الشيطان :

« وَلَيْسَ بَضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

(المجادلة : ١٠)

ويقول عن السحر والسحرة :

« وما هُمْ بضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

(البقرة : ١٠٢) .

وإذا كان الله هو المنفرد بالضر والنفع فالسؤال الذى يتبادر إلى الذهن . . ما هو إذن دور الأسباب الظاهرة مثل الميكروبات والسموم والأمراض ؟ كيف نراها تضر ونرى العقاقير تنفع والطبيب يشفى ؟ والجواب أن الأسباب لله هو الذى يملكها وهو الذى يؤثرها وهو الذى يسوقها وهو الذى يسخرها . . وهو الذى أقام قانون السببية .

يقول الله عن ذى القرنين :

« وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا . فَاتَّبَعَ سَبَبًا » .

(الكهف : ٨٤ ، ٨٥)

فالأَسباب لا تضر بذاتها ولا تنفع بذاتها وإنما هى فى جميع الأحوال مظهر لمشيئته تضر بإذنه وتنفع بإذنه . . وهو إن شاء أوقع الضرر بها أو بدونها ، وإن شاء عطّلها عن الفعل كما عطّل النار عن إحراق إبراهيم عليه السلام .

ولذلك يقول إبراهيم :

« وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » .

(الشعراء : ٧٩ ، ٨٠)

يقول ذلك بالرغم من الأسباب الظاهرة للإطعام والسقاية والشفاء . ولكنه فهم الأمر على حقيقته أنه سبحانه بيده مقاليد كل شيء . كما أن الله منفرد بالتصريف وبالعلم المحيط . يقول الله لرسوله فى القرآن :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » .

(آل عمران : ١٢٨)

« اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ » .

(الروم : ٤)

« أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

(الأعراف : ٥٤)

« قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » .

(آل عمران : ١٥٤)

« بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً » .

(الرعد : ٣١)

« وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الأنعام : ٥٩)

« قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » .

(النمل : ٦٥)

وكل ما يصنع الإنسان ويخترع وينشئ يجب إسناد الصنع فيه إلى
الله حتى ما يبني بيديه من سفن ومراكب :
« وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ » .

(الرحمن : ٢٤)

« وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ
مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ » .

(يس : ٤١ ، ٤٢)

« فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ (إِلَى نُوحٍ) أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا .
(المؤمنون : ٢٧)

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ . أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ .
(الواقعة : ٦٣ ، ٦٤)

« أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ .
(الواقعة : ٥٨ ، ٥٩)

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ .
(الواقعة : ٦٨ ، ٦٩)

« أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ .
(الواقعة : ٧١ ، ٧٢)

والله بذلك يفرد نفسه بإنشاء كل هذا حتى ما يتصور الإنسان أنه يتشبه
بأيديه مثل السفن والمخترعات ، فهي الأخرى كانت بوحى من الله . .
هو الذى أمدنا بالعقل وبالفكرة وبالخامات ، ثم تابعنا بعنايته وتوجيهه ،
ورافقنا خطوة بخطوة حتى الإنجاز النهائى .

وفى ذلك أفراد واضح لله بالصنع والفعل ، وإن كان الظاهر أن
الإنسان يصنع ويفعل .

ثم إن الله منفرد بالفضل :
« وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

(الحديد : ٢٩)

وفى الحديث النبوى :
اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير (أى إن الذل

في الطلب لن يجديكم إذا كان في تقدير الله حرمانكم .
ومن وصية الرسول عليه الصلاة والسلام لابن عباس : « يا بني إن
الناس كلهم لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء ما ضروك إلا بشيء كتبه الله
عليك وإن اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء ما نفَعوك إلا بشيء كتبه الله لك » .
وأجاب الرسول على من قال .

أستغيثك يا رسول الله .

بقوله : إنما يستغاث الله .

كما أن مقاليد الإيمان بيد الله وليست بيد الرسل ولا الكتب ولا
بتأثير المعجزات :

« وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا
الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ
وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَوْ
أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا
مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ » .

(الأنعام : ١٠٩ - ١١١)

ولا يستطيع رسول أن يهدي من لا يريد الله هدايته :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(القصص : ٥٦)

ولا يجدي كتاب حيث لا يريد الله أن يفتح على العقل شيء .

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ قِرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(الأنعام : ٧)

وإنما بالله وحده :
« وَإِذْ أُوحِيتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمَنُوا بِى وَبِرُسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ
بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .

(المائدة : ١١١)

كما أن الصلّاج والطاعة بيد الله .
« وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ » .
(الأنبياء ٧٣)

وهو الذى يجعل الإمام إماماً :
« وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ » .

(الأنبياء : ٧٣)

ولكن مشيئة الله وهديه ليست أموراً عشوائية تعطى وتمنع فى تعسف
وإلا انتفت مسئولية العباد تماماً . . . والقرآن يوضح هذه المسألة فيقول
إن هناك دائماً حكمة وراء المنع والعطاء والهداية والإضلال ، وإن
مشيئة الله وهدايته دائماً تستند إلى لياقة واستعداد فى العبد . . . وإن العبد
يملك من المبادرات وخلوص النية والتوجه ما يرشحه للعطاء أو الحرمان . .
فعطاء الله مشروط كما أن حرمانه مسبب وليس الأمر جبراً وإكراها
وتعسفاً :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ » .

(السجدة : ٢٤)

« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ » . (غافر : ٣٥)

« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً » .

(البقرة : ١٠)

« فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ » .

(الصف : ٥)

« اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

(الأنعام : ١٢٤)

« وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ » .

(الأنفال : ٢٣)

فهناك دائماً أسباب .. والعبد يستطيع أن يخطو إلى ناحية النور فيتلقى النعمة أو يرجع إلى الظلمة فيصيبه الحرمان فالأمور تنبني على توجهات قلبية والتوجهات القلبية حرة بيد أصحابها وملك لأصحابها . والقضية لها ظاهر وباطن .

ولهذا يبدأ الصوفي أول ما يبدأ بتطهير باطنه (وهو ما يسمونه في المصطلح الصوفي بإعداد المحل) ، وذلك بالعبادة والطاعة والخروج من كل خلق ذميم والتخلق بكل خلق كريم ، وبذلك يجعل نفسه أهلاً لتلقى النفحة .

وفي الحديث النبوي :

« إِنْ لَرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ فَتَعَرَّضُوا لَهَا » .

والتعرض لا يؤتى ثمرته إلا إذا تمت المناسبة بين المحل وبين النفحة التي سوف تحل فيه .

وإذا جالست المجرم المحترف ساعات فكلمته عن الشرف والأمانة

ومكارم الأخلاق فلن يسمعك ، وإن بدا مصغياً ، وإذا سمعك فلن يفهمك ، وإذا فهمك فلن يتصرف على وفاق ما فهم . . لأن قلبه غير معد لاستقبال النصيح .

ولا يمكن دعوة الملوك إلى مرحاض . . إنما لابد أن تفرش لهم الأرض وتصف طاقات الورد وتفتح صالات الاستقبال .

ولهذا ألقى الله برسالته إلى محمد عليه الصلاة والسلام ولم يلقها إليك ليس ظلماً ولا تحيزاً ، وإنما لأن القلب المحمدى هو المحل الكامل الذى أعده صاحبه وطهره وفرشه بالورود والرياحين ، فأصبح ملائماً لنزول ملك الملوك .

وفى الأمر أسرار .

والمسألة دقيقة وشريفة وتحتاج إلى مزيد نظر وتأمل .

الفصل الثاني

الوجود كله لله





التوحيد موضوع دقيق عميق لا يفهمه تمام القهم إلا أهل البصائر .
وبين الواقع المشهود والأمر الإلهي يتوه العقل .
الله يقول . . (لا إله إلا أنا) . أنا الذي أحى وأميت وأضر وأنفع
وأطعم وأسقى وأرزق وأمنع .

والواقع يرينا من حولنا عديداً من القوى الفاعلة لا قوة واحدة . .
ويرينا كل قوة من هذه القوى قادرة وفاعلة في مجالها . . فالرصاصة
تقتل والسم يقتل والميكروب يقتل والسفاح يقتل . . كما نرى الملوك
يحكمون ويرفعون ويخفضون ويعززون ويذلون ويرزقون ويمنعون .
والقرآن يقطع بإسناد الأعمال مطلقاً إلى الله وكأنما كل هؤلاء لا وجود
لهم :

« له مقاليد السموات والأرض يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ » .

(الشورى : ١٢)

« بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » .

(المؤمنون : ٨٨)

« اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »
(المائدة : ١٢٠)

« وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » .
(الأنعام : ١٣)

« وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » .
(هود : ١٢٣)

« قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً » .
(الزمر : ٤٤)

« إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » .
(يونس : ٦٥)

« أَنْ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » .
(البقرة : ١٦٥)

ويروى القرآن ما يحدث من ظواهر طبيعية فلا يقول .. نزل المطر
أو هبت الريح . أو نبت الزرع أو حدثت كارثة .. بل يقول :
« أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » .

(لقمان : ١٠)
« فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » .

(لقمان : ١٠)
« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ » .

(الحجر : ٢٢)
(الأنعام : ٦)
« وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا » .

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » .

(الحجر : ٧٤)

« وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

(الأعراف : ١٦٥)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ » .

(الأعراف : ١٣٣)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصراً ، فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ » .

(فصلت : ١٦)

« فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » .

(القصص : ٤٠)

« فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » .

(القصص : ٨١)

« بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » .

(الأنبياء : ٤٤)

« فَأَمَّنُوا فَمَرَّغْتُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » .

(الصافات : ١٤٨)

« وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ » . (الأنبياء : ٧٩)

فيسند كل شيء إلى الله . . وهذا هو التوحيد ، هو الفاعل لكل

شيء . . يحيي ويميت ويشتي ويطعم ويسقي .

« نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بَطْنِهِ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبِنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ » .

(النحل : ٦٦)

كل شيء بفعله وأمره :
« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي » .

(هود : ٤٤)

فماذا حدث :
« غِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ » .

(هود : ٤٤)

وهذا هو الفرق بين السرد القرآني وبين السرد الروائي للحوادث . .
بين التوصيف الإسلامي والتوصيف العلماني للأمور . . فالتوصيف
العلماني يقول نزلت الصاعقة على فلان ، والقرآن يقول أنزل الله الصاعقة
على فلان .

ولهذا كان أمراً طبيعياً أن يطلب منا القرآن صرف العبادة لله وحده
مادام هو الفاعل وحده لكل شيء .
« لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ » .

(فصلت : ٣٧)

« اتَّعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(الصافات : ٩٥ ، ٩٦)

« قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي » .
« قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أَيْبَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ »

(الأنعام : ١٦٤)

« هَلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِيَكُمْ إِلَهًا » .

(الأعراف : ١٤٠)

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن بعد ذلك . . إذا كان الله هو
الفاعل لكل شيء فماذا يبقى للعبد من فعل وعلام يحاسب وفيه يسأل . . ؟ !
ثم ما هذه الكثرة من القوى الفاعلة التى نراها حولنا تفعل وتؤثر وكأن
كلا منها إله .

والموضوع يختلف بحسب نوع هذه الكثرة ، فكثرة الظواهر الطبيعية
والقوى المادية يقول لنا القرآن إنها تعمل بالتسير والتسخير والأمر الإلهى
والكلمة الإلهية . . فكلها جنود مجندة من رياح وأعاصير وزلازل وبراكين
وفيروسات وميكروبات .

ولكن الله يجعل لفعل هذه المؤثرات أسباباً وقوانين ليخفى مشيئته
فيظهرها ، وكأنها تفعل من نفسها . . والملائكة شأنها شأن هذه الجند
تعمل بالأمر الإلهى :
« لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

(التحريم : ٦)

وتقول الملائكة للرسول اعتذاراً عن طول غيابها :
« وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . . وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا » .

(مريم : ٦٤)

ولهذا تنصوى هذه الكثرة المتكثرة فى وحدة واحدة هى الأمر
الإلهى . . الكل بطبعه ولا يتخلف . . فالكل مظهر لمشيئة الواحد
كثرة لا تنهاهى عدداً قد طوتها وحدة الواحد طى
كل شيء فيه معنى كل شيء فتفطن واصرف الذهن إلى
ولهذا يقول القرآن عن الموت .

« قُلْ يَتَوَقَّأَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » .

(السجدة : ١١)

فيستند الموت إلى عزرائيل .

ثم في موضع آخر يعود فيقول :

« تَوَقَّعْتَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ » .

(الأنعام : ٦١)

فيستند الموت مرة ثانية إلى جنود عزرائيل .

ثم في موضع ثالث يعلن الحقيقة

« اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » .

(الزمر : ٤٢)

فالكل مظهر لمشية الواحد . . ولا اختلاف بين الآيات الثلاث

فالكل طوع أمره وهذا هو الحال مع كثرة الظواهر الطبيعية ومع القوى

المادية ومع الملائكة والملاأ الأعلى . . أما مع الجن والإنس والشياطين

فنحن مع نفوس مخيرة تطيع وتعصى عن اختيار ، وتخالف الأمر

الإلهي إلى هوى نفوسها . . ولهذا جعلها الله محل مؤاخظة ومحاسبة وعقاب

وثواب . .

ونرى القرآن يستند العمل إلى الشيطان فيقول موسى بعد أن قتل

خصمه في الشجار :

« قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ » . قال رب إني

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لِي فَغَفَرَ لَهُ » . (القصص : ١٥)

وفي هذا الغفران مصادقة من الله على دور الشيطان ومشتوليته
فيما حدث .

أما الإنسان فهو ذروة اللغز وهو المدار الذي يدور حوله القرآن
بحكم الخطاب .

والإنسان في القرآن مأمور بالعمل ومكلف ومشتول ومراقب ومحاسب
على أعماله :

« وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(التوبة : ١٠٥)

والقرآن يسند الأعمال صراحة للعبد كما يسندها صراحة للرب
فيقول المسلمون لأهل الكتاب :
« اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ » .

(الشورى : ١٥)

« كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » .

(المذثر : ٣٨)

« كُلَّ امْرَأَةٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ » .

(الطور : ٢١)
« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنْشُورًا » .

(الإسراء : ١٣)

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

(الزلزلة : ٧ ، ٨)

« وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(الكهف : ٤٩)

« وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » .

(يونس : ٦١)

« أَلَيْ لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » .

(آل عمران : ١٩٥)

« إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(الجاثية : ٢٩)

فالعباد لهم أعمالهم وهي تدون صغيرها وكبيرها .

« وَكُلٌّ صَغِيرٌ وَكَبِيرٌ مُسْتَقَرٌّ » .

(القمر : ٥٣)

ولا يظلم الله أحداً مثقال ذرة من عمله .

ويشرح القرآن هذا الازدواج في إسناد الأعمال للرب وللعباد وكيف أن عمل الرب لا ينشأ من عمل العبد ، ولا ينشأ مسئوليته ، فيقول إن الله أقام الإنسان في الأرض خليفة وفتح فيه من روحه وسخر له الطبيعة وطوع له القوانين ومكنه من العمل :

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » .

(البقرة : ٣٠)

« وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .

(الجاثية : ١٣)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » .

(الأعراف : ١٠)

فالأمر يجرى على وفاق سنن عليا قررها الله في الأزل ، والإنسان يعمل بتفويض وتوكيل وله حرية الطاعة والمعصية ، وله أن يحسن أو يسيء التصرف في هذا الاستخلاف ، وهو مسئول في نطاق هذا التكليف .

« . . لا يَكْلِفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

(البقرة : ٢٨٦)

وهو بيان قاطع بأن الله أعطانا الاستطاعة وجعل في وسعنا أن نعمل على وفاق الأمر الإلهي أو ضده .
اختيار الإنسان إذن حقيقة قرآنية . . وحرية ذلك الاختيار مقررمة مكفولة .

والمشكلة تبقى . . كيف نوفق بين وجود إرادة للعبد وإرادة للرب . . وكيف نوفق بين هذا وبين تصورنا للتوحيد . . وكيف نفهم إسناد الفعل إلى العبد والرب معاً .

هل هناك إرادتان .

وهل هناك مشيئتان .

هناك سر .

ومفتاح هذا السر في الآية ذات الدلالة العميقة التي يخاطب الله بها نبيه :

« وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

(الأَنْعَال : ١٧)

فإنه في هذه الآية العجيبة يثبت الرمي للنبي عليه الصلاة والسلام

وفي ذات الوقت ينفي عنه الرمي . . يثبت له الفعل وينفي عنه الفعل
في عبارة واحدة (وما رميت إذ رميت) . . ثم في النهاية يثبت الفعل
لنفسه (ولكن الله رمى) .
« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » .

(الأنفال : ١٧)

الواقع المشهود الظاهر يقول إنهم قتلوهم بأيديهم وسيوفهم . . هذه
حقيقة يشهد بها الواقع - ولكن القرآن ينفيها .
« فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » .
ويسند القتل بشكل خفي إلى الله .
وهذه إشارة إلى أن المسألة لها ظاهر وباطن ، وأن القضية لها
أسرار .

فالظاهر أن أمامنا إرادتين ولكن الحقيقة أن الإرادتين تعملان في
تطابق خفي ، وكأنهما إرادة واحدة . . فالله لا يُكرِه العبد على ما لا يريد
بل يختار له من جنس قلبه ويريد له عين ما أراد لنفسه ويسهل له إنفاذ
ما أضمر في نيته . . من أراد الدنيا آتاه الدنيا ومن أراد حرث الآخرة
زاد له في حرث الآخرة من طلب الهدى هداه ومن أضمر في قلبه المرض
أمراضه من أعطى واتقى وصدق بالحسنى يسهل ويسر ومن بخل واستغنى
وكذب بالحسنى يسهل ويسر . . والآيات على ذلك صريحة .
« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » .

(الشورى : ٢٠)

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى . »

(محمد : ١٧)

« إِنَّ يَعْزَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ . »

(الأنفال : ٧٠)

« فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . »

(البقرة : ١٠)

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . »

(الليل : ٥ - ١٠)

ومعنى ذلك أن الله يقضى على العبد بما يطابق نيته . . وأن العبد ينوى والله ينفذ له ما نوى . . إذا أراد أن يضر قال له الله هالك يدي نفذ بها ما أضمرت من ضرر عليك إثم نيتك وإن أراد أن ينفع ويفيد قال له الله هالك يدي نفذ بها ما أضمرت من نفع ولك ثواب نيتك قاله في الحالين هو النافع الضار وهو الفاعل . . وإنما تبلى السرائر (النيات) ويوم القيامة هو :

« يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . »

(الطارق : ٩)

« إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ »

(العاديات : ٩ ، ١٠)

فبواطن القلوب والنيات هي عمدة الحكم .

ومن هنا تزول الثنائية ونعود إلى واحدة ، فالله يسيرك إلى عين اختيارك

فلا جبر ولا إكراه ولا وجود لإرادتين متنازعتين بل مشيئة واحدة ، فالله
يشاء لك عين ما شئت لنفسك وينفذ لك ما أضمرت في قلبك ليكشف
لك ما كتمت ، ويعلن ما خبأت ويظهرك أمام نفسك على حقيقتك .
وبذلك يزول الخيط الدقيق الفاصل بين التسيير والتخير ، ، فإذا
بالتسيير هو عين التخير والتخير هو عين التسيير . . وإذا بالاثنتين
واحد في ذلك اللغز الذي اسمه الإنسان .

ولكن الله كان يعلم سلفاً كل شيء بحكم علمه المحيط . . . وعلم
الله لا يتنى حرية العبد . . . كما أن علمك بضعف ابتك في لغة ثم
تتبؤك برسوبه لا يعنى أنك أنت الذى أسقطته في الامتحان . . إنما
هو علم حصر وإحاطة لا علم إلزام وإكراه .

إذن لسنا عرائس في مسرح عرائس تحركنا الخيوط راغمين فتعاقب
ونتلاكم دون أن يكون لنا في الأمر حيلة واختيار .

كما أننا لسنا ممثلين في مسرح دراما نتلو أدواراً محفوظة وكل منا
يمثل هاملت « وكأنه » هاملت ودون أن يكون أبداً هاملت .

بل نحن نمثل أنفسنا ونختار طبائعنا ونباشر نياتنا . . فنحن حقائق
ولسنا دمي .

وإذا كان لا بد من التشبيه بالمسرح . . فنحن نمثل على مسرح
عجيب تختفى فيه كميوشة الملقنين فلا تظهر لنا ولا لأحد . . ويباشر
التلقين في هذه الكميوشة الخفية عدد من الملائكة والشياطين يلقنون
الممثل نسخاً مختلفة من نفس الدور . . واحد يقول له اقتل . . والآخر
يقول له . . لا تقتل . . حرام . . اصفح واغفر . . وثالث يقول .

بل تكسر له ساقه كما كسر لك ساقك . . . ورابع يقول بل تكسر ساقه وتسرق حافظته . . . وخامس وسادس وسابع وثامن . . . وكل واحد يقترح عبارة وفعلًا . . . ويتلقى الممثل هذه الاقتراحات دون أن يرى مقترحيها فيخيل إليه أنها من نفسه . . . وهو يتخير منها فيستجيب إلى ما يوافق نيته وطبعه . . . وهو بهذا المعنى لا يمثل بل يعبر بصدق عن وجوده (كل اللغز أن الله عالم مسبقاً بجميع اختياراته ولكن هذا العلم الإلهي لا يتدخل في تلك الاختيارات) ومن هنا كانت الرواية الإلهية محبوبة بينا الرواية الشكسيرية ملفقة ومحفوطة من الممثلين مسبقاً والرواية الإلهية مبنية على خطة التوحيد الكامل بينا رواية شكسبير تتدخل فيها عدة أيد وعدة مشيئات . . . كمشيئة المخرج أو المنتج أو الممثل أو صخب الجمهور ويمكن أن تنتهي إلى الفشل والإحباط .
سوف يقف واحد ويعترض قائلاً :

صدقنا أن البطل في هذه التراجيديا الإلهية المحكمة لا يمثل ولا تحركه الخيوط بالرغم من إرادته بل هو يختار نيته وضميره وينفعل عن طبعه ونفسه وحقيقته . . . ولكن ألا يحق لنا أن نسأل : ومن خلق له حقيقته ؟ !

وهو سؤال يحملنا إلى حلقة أخرى من حلقات العماء والخفاء والأسرار . . . فنقول . . . لا . . . حقيقة أى إنسان غير مخلوقة وغير مجعولة . . . ولو كانت حقيقتك مخلوقة مجعولة لما كانت حقيقة . . . ولأصبحت تلفيقاً طارئاً .

وسوف يعود السائل ويسأل مندهشاً .

وإذا كانت حقيقتي غير مجعولة . . فمن أين أتت ؟ ! فنقول :
حقيقتك أزلية قديمة وليست يجعل جاعل ... والله لا يقلب الحقائق
ولا يغيرها . . وإنما يعطيها لبسة الوجود لتعبر عن نفسها وتكشف عن
دخائلها . . .

وسوف يصرخ صاحبنا حائراً :

وأين كنت قبل إيجادى .

فنقول :

كنت حقيقة في العدم تطلب من الله الوجود بلسان الحال فرحمك
الله بإيجادك وألبسك لبسة الوجود وأعطاك الذراع والقدم واللسان لتضر
وتنفع وتتحقق بمنزلتك وربيتك بلا ظلم وبلا قهر وبلا تدخل من
أحد . . يقول لك ربنا .

« وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً » . (مريم : ٩)

ويقول :

« . . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(النحل : ٤٠)

فيوجه الخطاب (أن نقول له) لتلك الحقيقة في العدم وكأنما لها
كينونة من نوع ما . . وكأنما العدم غير معدوم .
وذاك سر آخر يعرفه أهل الأسرار .

فالعدم ليس معدوماً وإنما له كينونة من نوع ما ، والفرق بين كينونة
الوجود وكينونة العدم كالفرق بين الموجب والسالب . . والفرق بين الفاعل
والقابل . . والفرق بين النور والظلمة .

ولو كان العدم معدوماً لما كان له معنى في الذهن
فالعدم كلية من الكليات .
وكل كلية تندرج تحتها حقائق .
وتلك الحقائق المندرجة في العدم هي النفوس والأعيان الثابتة
في الأزل التي تتطلع إلى الله طالبة أن يرحمها بإيجادها .
أنا . . . وأنت . . . وكافة الخلائق . . . حقائق لها قدم وثبوت وأحقية
في الأزل ولكنها حقائق سالبة غير قادرة على الوجود بذاتها وهي تظل
عاطلة عن الفعل حتى يعطيها الله القدرة على الوجود والفعل .
وهذا كلام عجيب يفتح أمامنا مغاليق مثيرة ويضع أقدامنا على
على حافة الخفاء المطلق .
وهو كلام يفتح الباب لألف سؤال وسؤال . .
وليس مطلوباً من مسلم أن يخطو إلى هذا المدى . .
ومن الممكن للمؤمن أن يعنى نفسه من كل هذا البحث ويكتفى
بالتسليم والتصديق بنص القرآن وبأنه حر مخير مكلف مسئول وبأن
الله عادل لا يظلم أحداً وأنه وحده الفاعل والضار النافع بالرغم من
كثرة القوى التي تبدو في الظاهر وكأنها تضر وتنفع . . يؤمن بذلك
تسليماً وتصديقاً ويكفى نفسه شر الحيرة . . ويقول :
« حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .
« وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ
نَفْساً إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَغُلِيَتْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » .
(البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦)

وهذا هو توحيد أهل الإقرار ولهم عند الله ثواب عظيم .

ويقول الإنجيل :

« طوبى لمن آمن ولم ير » .

ويقول القرآن عن

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » .

(البقرة :- ٣)

« أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(البقرة : ٥)

ولكننا في عصر عقل وعلم والإنسان يلتقي الدمار حيثما أراد بضغطة على زرّ ويرسل القنابل الذرية في صواريخ ويذرع الفضاء بالأقمار الصناعية وينزل الأمطار بالكمياويات ويتنبأ بحركات الشمس والنجوم القاصية لأصغر جزء من الثانية وكأنما أصبح إلهاً .

نحن في عصر يتبجح فيه العقل بأنه كل شيء .

وسوف تجد من يعترض عليك طريقك ليسألك في إصرار . . كيف

يقدر الله لنا أقدارنا ثم يحاسبنا ؟

فإذا قلت له . . « سلمّ تسلم وآمن بلا جدل » انصرف عنك لا يلوى

على شيء . . ولم يكتف باتهامك بالعجز بل جاوز الأمر إلى اتهام دينه بالعجز وقرآنه بالقصور .

ولهذا كان لا بد من قبول التحدى ، فنحن أبناء عصورنا ، وديننا

دين عقل يأمر بالتفكير ولا يحظر أعمال العقل إلا في منطقة واحدة هي

الذات الإلهية وكل ما عدا رب من الغيوب والأسرار أباحه الله لأهل العقول والبصائر كل على قدر استعدادة .

ومن لطف الله بعباده أن أباح لهم بعض الخفايا لتجد بعض النفوس التواقة زاداً متجدداً يشفى فضولها وأشواقها ويجد كل عصر زاده وحاجته من العلوم والمعارف .

سيقول صاحبنا الذي لا يكف عن السؤال : وهل عندكم حقائق وراء ذلك في خفايا أمر التوحيد .

سنبول نعم . . والسير إلى الله لا ينتهى . . ف وراء توحيد أهل الإقرار . . هناك توحيد أهل الأسرار فالأولون وقفوا عند التصديق والتسليم . . والآخرون رابطوا وصابروا وصبروا وعبدوا واجتهدوا وتطلّعوا إلى مزيد فهمهم الله الشهود .

سيقول وما ذروة الشهود ؟

فنقول : إن تشهد عدمك وإن الوجود كله لله والفعل كله لله . وإن كانت النية لك والاختيار لك . . وأن تفهم سر الآية :

« وما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » .

(الأنفال : ١٧)

والآية :

« فَلَمْ تَقْتُلْهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ » .

(الأنفال : ١٧)

وتفهم لماذا أثبت الله الفعل ونفاه في نفس الوقت عن العبد .
وتشهد كيف كانت اليد يده سبحانه والرمية رميته وإن صدرت حقيقة
الاختيار عنك . .

وذلك مشهد شريف دقيق لا مدخل فيه إلا للخاصة . . ولا فهم
ولا ذوق إلا للخاصة الذين بلغوا مرتبة الإحسان في العبادة فاستحقوا
المزيد .

الفصل الثالث

توحيد أهل الأسرار





هل هناك ما سوى الله ؟؟
على هذا السؤال الأزلي يجيبون .

نعم . . هناك العلم . . فما سوى الله عدم . والعلم عندنا غير
معلوم . . فالعدم هو الوجه المقابل للوجود كالظلمة في مواجهة النور
والسالب في مواجهة الموجب والقابل في مواجهة الفاعل والمرآة في
مواجهة الشمس .

وفي العلم حقائق أزلية قديمة هي شئون الله ، ونحن كلنا كنا
حقائق في العلم أخرجها الله برحمته وأعطاهما لبسة الوجود وجعلها محلا
لتجليات أسمائه وصفاته .

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » .

(الأحزاب : ٤٣)

« وَقَدْ خَلَقْتِك مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا » .

(مريم : ٩)

وهذا الخلق الدائم المتجدد وإخراج الحقائق من العدم إلى الوجود
ومن الظلمة إلى النور هو شئون الله .

والله هو الوجود المطلق الذى يستحيل عليه العدم . . فلم يبق إلا أن
يكون العدم هو « الغير » والسوى بالنسبة لله . . وأن تكون النظرة الثنائية
نظرة لا معدى عنها لفهم الأمور .

ولكنها نظرة ثنائية لا تنفى وحدة الوجود . . فالوجود كله لله ولا
« وجود » لغيره ولا فاعل غيره طالما أننا وصفنا الغير بأنه « عدم » وبأنه
« قابل » وليس فاعلا .

« وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »

(البقرة : ١١٥)

« لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » .

(النساء : ١٧١)

« هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ » . (الحديد : ٣)

ووحدة الوجود بهذا المعنى وحدة وجود إسلامية لا وثنية فيها ولا أثر
لانحرافات وحدة الوجود الهندية PANTHEISM فلا توحيد فيها بين العبد
والرب ولا قول بأن الرب هو عين العبد . . ولا دعوى مشبوهة مثل دعوى
« أنا الله » . . فقد قلنا من البداية إن العبد كان حقيقة أزلية فى العدم . .
حقيقة سالبة « قابلة » لا فعل لها . . وإنها خرجت إلى الفعل والوجود والحياة
بفضل الله ، وإن العبودية والافتقار والاحتياج خصائص ملازمة لها منذ
الأزل . . ولا تصح لها دعوى ربوية على الإطلاق إلا إذا أصابها الجنون
أو الكفر أو الإلحاد .

وللصوفي العارف الامير حسن بن مكزون السنجاري (عاش في
أوائل القرن السابع الهجري في سنجار بالعراق وكان أميراً على إحدى
قبائلها) نكتة لطيفة في هذا الباب فهو ينصح بضرب الصوفي المجذوب
الذي يقول : « أنا الله » وصكه بعنف فإذا احتج فقد تناقض مع دعواه
(بأنه الله) وأثبت قوة فاعلة غير الله . . وفي ذلك يقول شعراً :

حاجج لمن قال « أنا أنت » بالسب وبالضرب وبالصلك .
فإن أبا ذا منك فقل ملت عن توحيدك المحض إلى الشرك .

ويقول المكزون السنجاري في شهادته التوحيدية :
أشهد ألا إله إلا الله الأحد لا من عدد الظاهر بذاته من غير
جسد المتزعة عن الصاحبة والولد .

والذات الأحدية عنده لا تقبل التعدد لأنها كاملة وتعدد الكامل
مستحيل فكل ما يكون في نفسه تام لا يحتاج إلى آخر . . والكامل القادر
الواحد ينفي بجميع المراد فلماذا يتعدد . . وما الداعي إلى زيادة لا حاجة
لها إلا أن تكون عبثاً وفضولاً ولا عبث ولا فضول في الكون . .

تعالى ذات الله عن التعدد والكثرة وتعالى عن الحركة والسكون
وعن الحلول والاتحاد وعن التغير والفساد وعن احتواء الجهات وعن الأسماء
والصفات . . لا تحل في كيان وإن ظهرت للعيان .

تعالى ذات مولاي	عن الحيز	والوصف
وعما حال في الشكل	وما يُلحظ	بالطرف
تعالى ذات مولاي	عن الإدراك	بالعين
وعن دائرة الأين	وإن شوهده	في الأين

ويقول « المكثرون » إن كل ما نرى حولنا هي حضرة مجاز وتمثيل
(أمثلة لقدرة الله وصفته ، أما الذات القادرة الواهبة فهي في الغيب
لا مثل لها) .

ليس لها بالحسن مثل إنما تمثلت عند الظهور بالمثل
موصوفة بين الورى وحسنا تحت النعوت والصفات مادخل
ويقول في شعر رقيق مخاطباً الذات الإلهية :

إذا وصف العشاق معنى جمالكم
فتجريده من كل وصف له وصفى
وإن عبّروا باللفظ عنه فإننى

أقول مفيد اللفظ جل عن اللفظ
والذات عنده متعالية على الأسماء والصفات ، فالأسماء والصفات
مفادّة منها ولكنها هي ذاتها فوق حدود التسمي وفوق حصر الصفات :
يفنى الكلام ولا يحيط بوصفه

أبسط ما يفنى بما لا ينفد ؟
وتعدد الصفات لا ينفي وحدة الموصوف
عبارتنا شتى وحسنك واحد

وكل إلى الجمال يشير
ومن لطف الله أنه يتقرب إلينا ويتعرف علينا بأوصافنا نحن لا بأوصافه
هو ، وذلك على سبيل الإيناس المألوف بدلا من أن يواجهنا بذاته التي
ليس كمثله شيء فتهلكنا الرهبة ويسحقنا الجلال من ذلك الذي
لا نعرف له شبيهاً ولا نعرف له أولاً من آخر .

فالرائي لا يرى من المنظر الإلهي إلا ما يشا كله هو من صورة الأسماء والصفات .

ممنوعة بالصفاء رؤيتها للعين إلا بوصف رائيها
يُطمعه الاسم « الظاهر » بمعرفة الذات ويظن أنه قد وصل ثم
يكشف أنه ما زال بعيداً وما زال واقفاً عند نفسه هو :

بصفائها ممنوعة أن تراها عين راء إلا بوصف الرائي
ولعجزى أن أراها بإياها بدت بالصفات والأسماء
فعليها ما دل قلبي سواها وإليها لم تدعني بسواي
والمعرفة عند ابن مكزون نوع من المغامرة المستمرة لا تنتهي إلا لتبدأ ،
فهو يحاول أن يعرف الذات بواسطة الأسماء ثم يفاجأ بأنه إنما عرف
الأسماء بواسطة الذات ، إذ هي التي وهبت الأسماء خصائصها وصفاتها
المميزة واحتفظت بذاتها في سر السر منزهة عن الوصف والكيف ،
لا تحل في كيان وإن ظهرت للعيان ، فالاسم والوصف كاشف وهو
في الوقت نفسه ساتر وحاجب :

كالشمس يجلوها على العين نورها

وهو لنا عن كنهها ساتر

فنور الشمس الشديد يحجب عن العين تفاصيلها وإن كان
يجلوها متألثة .

والصفات الإلهية عند ابن مكزون تقع على الاسم وليس الذات
ومن هنا قول القرآن .

« سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » . (الأعلى : ١)

« فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » .

(الحاقة : ٥٢)

« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا » .

(المزمل : ٨)

« وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » .

(الإنسان : ٢٥)

« تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

(الرحمن : ٧٨)

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » .

(العلق : ١)

« فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ » .

(الحج : ٣٦)

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » .

(الأعراف : ١٨٠)

وفي ذلك يقول عن الذات الإلهية :

وهي العليّة عن وصفي وعن كلمي

فالله بإفادته القدرة للقادرين سمي قادراً ، وإفادته الكرم للكرماء سمي كريماً ، وكذلك كل ما وُصف به إنما جرى عليه من قبيل أنه وهبة وإفادة لا من قبيل أن هذا الوصف أو ذاك كمال لذاته ، فصفت الله بهذا الاعتبار موهوبات من ذات الله ومفادة لأسمائه الحسنى ، أما ذاته فمترهة عن الصور والأوصاف لأنها واحدة الحسن ، وإنما هو سبحانه

يتلطف بعباده فيظهر لهم بالصفات والأسماء ويدعوهم بالصور المشابهة لهم حتى يستأنسوا . . . ولهذا قال الحديث . . « خلق آدم على صورة الرحمن » ، ولم يقل على صورة الله أو الذات ، فالله ظهر بالاسم الرحمن والرحمن خلق الإنسان على صورته لطفاً منه ليتم الائتناس ويمكن الحوار . . أما الذات فهي في العلو والتجريد لا يحيط بها وصف ولا اسم . وفي ذلك يقول ابن مكيرون . . من عرف موقع الصفة بلغ قرار المعرفة . . أي من عرف وأدرك أن الصفة لا تقع على الذات الإلهية وإنما هي مستفادة منها ومفادة إلى الواحد أو الاسم أو الشيء أو النفس القابلة وواقعة عليها . . من عرف ذلك بلغ قرار المعرفة .

ولهذا يرد النبي عليه الصلاة والسلام كل شيء في النهاية إلى الذات الإلهية في حديثه :

« أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك » . فهو في البداية يستعيز من أفعال وأسماء وصفات إلهية (أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك) ، ثم في النهاية يسلم إلى الذات كل شيء (أعوذ بك منك) .

والذات سارية في جميع الحضرات الوجودية في العالم مثل سريان الواحد في العدد ومثل سريان المداد في الحروف ولا يوصل إلى الله إلا بنور الله .

ولا يعرف الله إلا بالله . . ويقول الشاعر في ذلك :

وليس عليك غيرك من يدل

ومن العارفين من لا يصل إلى الله إلا استدلالاً فيستدل بفعله على

صفته وبصفته على اسمه وباسمه على ذاته سبحانه وأولئك ينادون من مكان بعيد . . . ومنهم من تحمله العناية إلى حريم الشهود فيشهد أنوار الحضرة . . . وبين الرجلين بون شاسع .

والله هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

سبحانه لم يسبق له حال حالا فلم يكن أولاً ثم أصبح آخراً أو كان باطناً ثم أصبح ظاهراً . . . بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن في ذات الآن دونما استحالة في اجتماع الضدين ، لا يمنع البطون من الظهور ولا يقطع الظهور عن البطون .

وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس الإنسانية .

« وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

(الذاريات : ٢١)

وفي الحديث الشريف . . . « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

فالنفس لها ظاهر وباطن في الوقت نفسه ، كما أن الله ظاهر وباطن .

وهي واحدة وهي كثرة من الصفات والأسماء .

والإنسان سميع بصير يريد متكلم عليم حكيم خالق مصور وهو

حاكم لظروفه مهيمن على بيئته .

والإنسان ديمومة ممتدة في الداخل وزمن موضوعي في الخارج وهو

بهذا المعنى نموذج مصغر ومثال من ربه . . . وروح الإنسان وجسده

مثال لذات الله والكون فلا انفصال بين روح الإنسان وجسده كما أنه

لا اتصال بينهما ولا يمكن القول بحلول الروح في الجسد ولا باتحادها

به ، فلو كانت روح الإنسان متصلة بجسده لنقص منها جزء إذا بتر

من الجسم جزء ولاقتضى الأمر في النوم ألا نرى ولا نبصر لتوقف آلات البصر بإغلاق العين .

كما أنها ليست منفصلة عن الجسد وإلا لما كان زيد أحق بها من عمرو . . . كما أن الرؤيا الصادقة في المنام هي دليل آخر على عالم لروح الغيبي المختلف عن عالم الجسد بحدوده وآلاته .

كذلك تبدو الأعضاء متحركة بذاتها (مثل النجوم التي تبدو متحركة بذاتها) مع أن الفعل كله للروح المحركة . . فالروح لها قيومية على الجسد كما أن لله قيومية على الكون .

وعلاقة الروح بالجسد لا هي حلول ولا اتحاد ولا هي اتصال ولا انفصال مثلما أن علاقة الله بمخلوقاته لا يجوز وصفها بالحلول ولا بالاتحاد ولا بالاتصال ولا بالانفصال .

والنفس تظهر في أفعالها دون أن تحيط بها أفعالها .

والنفس لها ظاهر وباطن مثلما يوصف الله بأنه ظاهر وباطن .

والنفس لها وجود غيبي كما أن لها حضوراً مشهوداً .

والنفس سارية في جميع الأفعال طول الوقت في لطف وخفاء .

والنفس من هذه الوجوه أكثر الحقائق شبيهاً بالسر الإلهي وفي ذلك

تقول الآية القرآنية البليغة :

« سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ . حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ »

(فصلت : ٥٣)

فالنفس آية كاشفة عن جلال الرب في دقائق أوصافها وخصائصها .

وفكرة ابن مكرزون عن الصفات الإلهية (أنها مفادة من الذات

بإنسان) تجعل الإنسان محل عناية وموهوب مجاناً برحمانية الصفات
الحسنى ومواهب العالم الأسنى :

إلى الرحمن نسبة كل عبد

ظهور صفاته الحسنى عليه

والكل مدعو للتخلى بهذه الصفات بلا مقابل والشرب من حوضها
النوراني الذي هو عين الحياة وإكسير الخلود .
« وَمَنْ يُرِدْ فليأخذ ماء حياة مجاناً » .

(رؤيا يوحنا ٢٢ / ١٧)

والسر الإلهي سار في الكون في لطف وخفاء فيما يسمى بالنفس
الرحماني .

ومركم في الكون سار وإنما

على كل قلب ضل عن فهمه قفل

وفي ذلك يقول ابن مكزون السنجاري ألياًتاً جميلة رقيقة :

وساحر زال عقلي بالسحر من مقلتيه

كلما وجهت وجهي عنه أراه إليه

ويقول في مكان آخر :

أين أمضى هارباً من ذي الجلال

وابتغائي هرباً منه محال

وهو لي فوق وتحت وورا

وأمام ويمين وشمال

ويمخاطب حبيته وتفهم أنه يخاطب الذات الإلهية فكل جمال في

حييته وكل حسن مفاد من الذات الإلهية .
ولولا ليل شَعْرَكَ ما ضللتنا
ولولا صُبْحُ ثَغْرِكَ ما اهتدينا
وأثينا . على أوصاف سَعْدَى
ومعنى غير حُسْنِكَ ما عينا
وذات الله غيب .

وجميع الأسماء والصفات الإلهية ما نعرف منها وما لا نعرف كلها
مجملة كامنة في تلك الذات كمون الشجرة في النواة ، وتلك هي الحضرة
الأحدية الغيبية (عالم الجبروت) وفي (عالم الملكوت) تظهر الحضرة
الصفاتية الأسمائية تنزلاً من عالم الغيب ، وفي (عالم الملك) تنزل الأسماء
الإلهية والصفات لتمد المخلوقات بالنفس الرحمانى وترعاها بالتربية
والعناية وتلك حضرة الربوبية ، أو نزول الله إلى السماء الدنيا لاستعمال
الحواس وتحريك الأعضاء فهو السامع والباصر والناطق على كل
لسان وهو قيوم كل شيء وهو مخرج الزهور من أكمامها والأجنة
من أرحامها .

وفي عظام الناس لى نشأة سبارة مركزها المخ
وكل هذه المستويات الوجودية هي ظهورات أو تجليات أو تنزلات
الواحد .

والله بهذا المعنى ظاهر في جميع المظاهر ولكنه منزّه عنها جميعاً وهو
غيرها وإن قامت به كما يقول الصوفية :
أرأى فيك موجوداً . وعنى أنت منفرد

وأقرب تشبيه للأمر هو تجلى الوجه في المرآة - فأنت ترى نفسك في المرآة . . . ومع ذلك فما يبدو في المرآة هو أنت وأيضاً لست أنت . . . وأنت موجود في المرآة دون حلول ودون اتحاد ودون انتقال . . . وإنما مجرد ظهور أو تجل .

ولسان حالك يقول وأنت تتأمل صورتك في المرآة :

نظري في الزجاج أشهدني نفسي

وغيري على خلاف الحال

مثل ما في المرآة أشهد مَنْ خلقني

أمامي وعن يميني شمالي

وسوف تقول لنفسك في المرآة :

أنا لا أنا هو لا هو

وسوف تقول للزجاج :

أراني فيك موجوداً وعني أنت منفرد

وبمثل هذا يتجلى الله في المظاهر المختلفة دون أن يحل فيها أو يتحد بها أو ينتقل إليها ، فهو حيث كان ولا شيء معه ، وهو ما زال على ما عليه كان دائماً تتجلى كنوزه وأسراره في عالم الممكنات ، كما تظهر صورتك متعددة في مرايا متعددة فتبدو في كل مرآة بزاوية خاصة ووجه مختلف :

وما الوجه إلا واحد غير أنه

إذا أنت عددت المرايا تعددا

والحدود المشاهدة هي بسبب المرايا ونوعياتها كل منها يعكس جانباً ويجلو زاوية بعينها ولكن الأصل غير محدود .

ترى كل عين منك طاقتها

ووسعها فانتفى تحديد معنك

كمّا أن تجليات الله بلا عدد وبلا نهاية وبلا حصر والإحاطة بهذه التجليات محال .

« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

(الكهف : ١٠٩)

والتوحيد عند أهل الأسرار مراتب ودرجات . أدناها التوحيد اللساني بقول لا إله إلا الله ، ثم التوحيد البرهاني وذلك بالتفكر والتأمل والاعتناء ، ثم التوحيد حياة وعملا وسلوكاً وذلك بأن تكون حياة العارف مطابقة لأمر الله ومبدولة كلها لله وكأنما هو وإرادة ربه شيء واحد .
« قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » .

(الأنعام ١٦٢ ، ١٦٣)

ومثل هذا العارف تتوحد أقواله بأفعاله وتتطابق نيته مع أعماله ويتماثل ظاهره مع باطنه فلا رياء ولا نفاق ولا كذب . . . وإنما الكل منسجم في وحدة هي ظل لنا موسى الله في الأرض .

وذروة التوحيد هو التوحيد الشهودي وذلك بفناء العارف بين يدي ربه فلا يعود يرى لنفسه وجوداً ولا جسداً ولا كيئناً ولا يشهد إلا نوراً

بوجه ، وبذلك تنتهي الثنائية ويعود العدم إلى العدم ويبقى الله لا إله إلا هو ولا وجود إلا له - واحد أحد صمد لا سواه . . . وذلك هو معاينة التوحيد شهوداً . . . ولا يكون إلا ببلوغ الحضرة وكشف الحجاب .
وتلك هي مرتبة « قاب قوسين أو أدنى » التي بلغها الرسول عليه الصلاة والسلام في معراجة .

وبعد تلك الجمعية العلوية مع الرب يُرد الرب للنفس بقاءها وذلك هو البقاء بعد الفناء والعودة في مقام العصمة والاستقامة :
ومثل هذا العبد الكامل بعد معراجة لا يعود يقطعه شيء عن ربه فهو مع الخلق لا تنقطع صلته بالحق ومع الحق لا تنقطع معاملاته للخلق . . . فهو أبداً في حالة حضور مع الله لا يغفل عنه لحظة ، فهو مع الناس بعقله ومع ربه بقلبه لا يقطعه الكثرة عن الواحد ولا يقطعه الواحد عن الكثرة ، فقد انتفى عنده التناقض بين الواحد والعدد فأصبح يرى كلا منهما في الآخر .

كثرة لا تنهاى عدداً

قد طوّها وحدة الواحد طي

كل شيء فيه معنى كل شيء

فتفطن واصرف الذهن إلى

وذلك هو توحيد الأنبياء .

الفصل الرابع

الوجود والعدم





ما ثم إلا وجود وعدم . ولكن العدم غير معدوم ، بل هو حضرة لها حقائقها كما أن الوجود (الله) حضرة لها حقائقها . فالعدم حضرة سالبة بمثل ما أن الوجود حضرة موجبة . . والعدم حضرة « قابلة » بمثل ما أن الوجود حضرة « فاعلة » . . وهما أشبه بالظلمة والنور والمرآة والشمس التي تبدو فيها . . وهي تشبيهات قاصرة عاجزة ولكننا لا نجد غيرها .

وكل حقيقة في العدم هي قابلة . . وهي عين ثابتة قديمة في الأزل . . وهي ذات لها خصوص وصف هو الافتقار الكامل والاحتياج المطلق وعدم القدرة على شيء . . وهي حقيقة غير مجمولة (غير مخلوقة) فهي قديمة أزلية وتشخصها أزلى . . فكل ذات تحمل معها خصائصها ومكوناتها منذ الأزل .

وتتفاوت الحقائق (الذوات) في الجانب السلبي العدمي كما تتفاوت درجات البرودة سلباً تحت الصفر . . وهو مثال تقريبي لأشياء لا يمكن تقريبها ولا تمثيلها بعبارات وكلمات فنحن في منطقة من الأسرار النهائية لا يجلوها اجتهد فكر ولا يجيب عليها إلا كشف إلهي وعلم لذني . .

ومن الحقائق في العدم ما لا يطلب الظهور ولا الوجود وتلك الحقائق تبقى عدماً مطلقاً ولا يجعل الله لاسمه الظاهر سبيلاً إليها .

ومن الحقائق في العدم ما يتوق إلى الظهور والوجود وما يتطلع إلى الله حين يتجلى عليه طالباً أن يرحمه بإيجاده وتلك الحقائق أو الذوات يخرجها الله من العدم إلى الإمكان ويجعلها محلاً لولاية أسمائه الحسنی وصفاته وتلك هي شئون الملك والملكوت . . وهذا هو عالمنا . . وهذه الذوات هي أنا وأنت ونحن .

وكل ذات منا تحمل حقيقتها معها وتحمل خصوص وصفها معها ولا يجعل الله لقدراته سبيلاً إليها إلا من حيث إعطائها لبسة الوجود الخارجية وإعانتها على الفعل بحسب خصوص نياتها . . ولا يقلب الله حقيقة أحد ولا يقهر أحداً على غير طبيعته (فالحقائق كما قلنا قديمة أزلية غير مجعولة) .

ولو قلنا إن الله يجعلني قهراً كذا وكذا ففي هذا الكلام نفى لذاتي ونفى لحقيقتي . . وقلب الحقائق مستحيل وإلا كانت الحقائق ظواهر لا حقائق وهذا نفى للحكمة التي أقامها الله ناموساً لكل شيء . . ثم إن الجعل والقهر هو نفى للإمكان وقد أراد الله في ناموسه أن يكون كل منا ذاتاً قابلة للاحتتمالات من البداية . . وإمكانية بحية مفتوحة لجميع الاختيارات .

ولو كان « القابل » مجعولاً لما كان قابلاً ولضرب عليه التحديد من بدايته ولأنتفت المحاسبة والمساءلة . . كما أننا إذا نفينا « الذات جعلنا من المساءلة عبثاً .

ونسائل من . . ؟

ونحاسب من . . ؟ ؟

والأمر مجعول ولا إمكان لوجه آخر ولا قابلية لاحتالات ولا حقيقة للعبد ، وإنما الله هو الذى ينوى وهو الذى يضرر وهو الذى يفعل . .
إنما تصحيح الأمر أن ذات العبد حقيقة وأنها إمكان بحث قابل لجميع الاحتمالات . . وأن العبد ينوى ويضرر ويتوجه بالإرادة إلى حيثما تسول له نفسه ولكنه لا يستطيع أن يفعل فى عالم المادة والواقع إلا بمعونة الله بقيوميته سواء علم بذلك أم جهل . . والله بقيوميته وقدرته يخرج نية العبد وسريته إلى عالم التحقيق ، فيعاونه على تحقيقها على حالها خيراً كانت أم شراً دونما تدخل إلا إذا أراد العبد تدخل الله وطلبه باللسان أو القلب أو الدعاء . . والله لا يغير من عبده إلا إذا طلب العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محبباً وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدى الرب وخلع الاختيار وخلع الإرادة الصغرى تسليماً وإيماناً وتصديقاً وثقة بالإرادة الكبرى . . وهذا هو المشى إلى الله على الصراط والخروج من الهلاك إلى النجاة .

وحيثما نقول إن هذه الذوات الممكنة كانت فى علم الله فيجب أن نفهم أن علم الله بهذه الذوات هو ما تعطيه هى أنفسها من معلومات وأن الله لا يتصرف فى القابل (الذات القابلة) إلا على ما هى عليه تلك الذات القابلة وإلا كان قابلاً للحقائق وواضعاً للشيء فى غير موضعه وهو الظلم . . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً . . فهذه الذوات إذن معلومة بما هى عليه ومحكومة وحاكمة بحقائقها . . هكذا اقتضت

حكمة الله . . . ولا يصح أن تُجَوِّز على الله ما ينافى الحكمة . . . فالله
قضى في أزاله أن يستعمل كلا على شاكلته وأن يوقف كلا عند استحقاقه
في سابقته وألا يقهر أحداً على غير طبعه .

« قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ » . (الإسراء : ٨٤)

فهو لم يجعل إبليس إبليساً ولكن كبرياء هذه النفس الملازم لها
منذ الأزل هو الذى رشحها لهذا المنصب الإبليسى .

وهكذا يقيم الله كل نفس في مكانها بحسب خصوص وصفها
القديم الأزل .

وهذا مقتضى الحكمة الإلهية . . . لا جبر من رب على عبد ولا جبر
من عبد على رب .

ولكن المواقف تتغير إذا ألقى العبد باختياره طوعاً وأسلم نفسه إلى ربه
وطلب بلسانه وقلبه وجوارحه أن يزكيه ربه ويطهره ويغيره .

يقول الله لعبده :

(أَلْقِ الْاِخْتِيَارَ أَلْقِ الْمَسَاءِلَةَ الْبَتَةَ) .

[المواقف والمخاطبات - النفرى]

فهنا أعلى مستوى توحيد بين العبد وربّه على مستوى الذات حياً
واختياراً وتسليماً . . . فقد أعطى العبد لربه أثمن ما يملك « حقيقته » وتلك
ذروة المعرفة التى يكافئها الله بأعلى تكريم فيقول الله عن هؤلاء العباد . . .
هؤلاء هم أهلى وخاصتى وخلانى .

وهؤلاء العباد تسقط عنهم المساءلة لأنهم أسقطوا عن أنفسهم
الاختيار والتدبير وارتضوا اختيار الله لهم بتمام التوكل .

والكون بهذا المعنى مجموعة من القوابل السالبة والذوات الثابتة في العدم
إخراجها الله إلى الوجود وألبسها حللاً من أسمائه وصفاته . . وهي رؤية تصدق عليها
السطحة التي قالها ابن عربي . بأن هذا العالم غيب لم يظهر قط ،
والحق تعالى هو الظاهر ما غاب قط والناس في هذه المسألة على عكس
الصواب فيقولون العالم ظاهر والله غيب فهم بهذا الاعتبار كلهم عبيد
« السوى » والغير .

هذا هو خلاصة ما قاله العارفون في مسألة العدم ، أما الوجود
(الله) فقد سبق أن قلنا إنه حضرة أحدية ذاتية في غيب الغيب . .
وجميع الأسماء الإلهية والصفات الإلهية مما نعلم وما لا نعلم بمجملته كامنة
في هذه الذات الغيبية كمن في الشجرة في النواة . . (وذلك الوجود الغيبي
الأعلى هو عالم الجبروت) .

ثم إن لهذه الذات تنزلاً أو تجلياً فتظهر بأسمائها وصفاتها في (عالم
الملوكوت) في حضرة أسمائية صفاتية تمد الممكنات بحلية الوجود ثم
ترعاها بالتربية والعناية وتلك هي حضرة الربوبية في (عالم الملك) الذي
نعيشه نحن وسائر المخلوقات التي تحيا بفضل الله ومدده .

وبالرغم من هذه الكثرة من الأسماء الإلهية والكثرة من التجليات
والتنزلات والظهورات والحضرات يجب ألا ننسى لحظة أن الظاهر فيها
كلها واحد والمسمى واحد والسارى في جميعها واحد وتلك هي أحدية
الجمع (وهو الشعور دائماً بأنك مجموع على الله الأحد برغم الكثرة
الظاهرة وأن هذه الأحدية سارية فيك) ويقتضى الفهم الصحيح
للألوهية ألا نقف عند هذه الأحدية حتى لا يأخذ الواحد منا طائف

الجنون والذهول فيقول في لحظة (أنا الله) وإنما يجب أن نضم إلى هذا الشعور بالجمع شعوراً آخر مبانياً « بالفرق » فيشعر الواحد منا على اللوام بأنه حقيقة مفارقة في العدم وأنه قائم متحرك ناطق موجود بفضل الله لا يقدره من ذاته . . وفي رؤية هذين الضدين رؤية واحدة (الجمع والفرق) الفهم الصحيح . للألوهية . . فالعارف يُشَبَّه ويُتَزَّه في ذات الوقت .

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

(الشورى : ١١)

تتزيه وتشبيه معاً فهو ليس كمثله شيء وهو سميع بصير في ذات الوقت .

« وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » .

(الحديد : ٤)

آية صريحة دالة على « الجمع » .

« عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

(الرعد : ٩)

آية أخرى صريحة دالة على « الفرق » وعلى عزة الله ورفعته وعلوه على كل مخلوقاته .

وهذه الرؤية الدقيقة الشريفة « أحدية الجمع والفرق » هي فروة ما يبلغه العارفون في أمر التوحيد . . فهم يرون الوحدة في الكثرة كما يرون الكثرة في الوحدة في ذات الوقت . . فالله حاضر في جميع الموجودات . كما أن جميع الموجودات كائنة في علمه . . ولكنه غيرها جميعاً ومتعال عليها جميعاً .

ويرى العارف الموحد ما حدث في أمر الخلق بتلك اللغة الرمزية
الإشارية العالية فيقول :

هو الله الذى لا إله إلا هو الوجود الغيب ونحن العدم الغيب فظهر
سلطان التجلى من الوجود الغيب على العدم الغيب فظهر شهود الحق
الغيب (وهى المخلوقات كافة) توحده بلا جمود ولا ريب . . ظهور
دلالة وتعريف لا حلول وتكييف .

والوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرآة . . الحقيقة فاعلة
والمرآة قابلة ناقلة ولكنها سالبة لا تضيف من عندها شيئاً ولا تقدر بذاتها
على شيء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه
ولكن الأمر في حقيقته كثر من الغنى اللانهاى ومن هنا جاء التعدد
بسبب اختلاف القابليات فى الذوات الثابتة فى العدم كل منها يأخذ
من ثراء الحق تعالى على قدر استعداده . (كما تخرج ألوان سبعة من
النور الأبيض بسبب اختلاف زوايا الانكسار فى منشور زجاجى وكلها
كانت ثروة من الأمواج الطيفية كامنة فى اللون الأبيض) .
وما الوجه إلا واحد غير أنه

إذا أنت عدت المرايا تعددا

فجميع الحضرات الأسمائية والحضرات الصفاتية هى حضرات
مفادة من الذات إلى القوابل المتعددة فى العدم كل يقبل منها بحسب
استعداده . . ولكن الذات متعالية على الصفات متعالية على الأسماء
لا تحيط بها صفة ولا يحيط بها اسم .

ويأتى المدد من هذه الحضرات إلى أعيان الممكنات . . فيمددها

الحق تعالى من «النفس الرحمانى» بالوجود حتى يرجع وجودها على
عدمها (وعليها هو مقتضى ذاتها الأصلية بدون موجد لها).

وأما المخلوق الجديد فيكون بإيصال مدد الجود من نفس الرحمن إلى كل ذات ممكنة في العدم وإفاضة هذا الجود عليها على التوالي ليكون لها في كل آن تخلق جديد لاختلاف نسب الوجود عليها مع الآتات . مع استمرار عدمها في ذاتها . . وهي مسألة يتعذر فهمها إلا تذوقاً .

فحقائق المخلوقات وذواتها الأصلية باقية على عدمها الأصلي برغم
توالى صور الوجود عليها وتعينها آنأ بعد آن ودخولها في شأن بعد شأن وحال
بعد حال . . وهذا أمر يدركه العارف ذوقاً (إنه ميت حي في نفس
الوقت) .

يَقُولُ اللَّهُ لِرَسُولِهِ :
« إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » .

(الزمر : ٣٠)

يقول له ذلك وهو في ذروة الحياة والفعل تذكيراً له بتلك العين العلمية التي جاء منها هو وكل المخلوقات .

ومن جملة كمالات الله أنه يحيي ويميت وأن له القدرة على إمداد كل نفس قابلة على قدر قبولها واستعدادها من مدد الوجود والحياة .
« وَأَنَا كُنتُ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ » .

(إبراهيم : ۳۴)

وكل ذات ممكنة في العدم تسأله بلسان الحال أن يرحمها بإيجازها
فيوجد لها ويهديها إلى معرفته .

« رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

(طه : ٥٠)

« إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى » .

(الليل : ١٢ ، ١٣)

وهو يعطى كل نفس خلقها وقالها الذى تستحقه، ثم يهديها ويواصل إمدادها ويجدد خلقها آنا بعد آن .

« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » .

(هود : ٥٦)

هكذا تستمر علاقة ربنا بمخلوقاته وتستمر عنايته بها فيمدها جميعاً بأنفاسه الرحمانية . . ولو تخلى عنها لعادت عدماً كما كانت وما زالت . . فكل منا لا يملك من نفسه إلا العدم . . إنما نتحرك ونسمع ونبصر ونعقل بنور الله ومدده .

وكل ما سوى الله قائم بالله . . فكل العباد والخلق وكل ما هو حادث هو عدم منى على التحقيق ولكنه ثابت وقائم بالله وبتجلى الحق تعالى مع الآنات بوجهه فى الصور فيكون « الحدوث » عند الموحّد العارف هو ظهوره تعالى فى الصور المختلفة بالتجليات المتعاقبة غير المتكررة .

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد
فلا نطق ولا رسم ولا فعل إلا بالاستعارة والقرض من الله ولكن
الناطق فى ذاته باطل وعدم فى الحضرة الأحذية .

توحيده إياه توحيده ونعت، من يحته لاحد

أى أن التوحيد الحق هو توحيد الله ذاته بذاته .

* * *

كيف كان الخلق على الترتيب ؟

ومن هو أول مخلوق خلقه الله . . ؟

يقول العارفون إن أول ما خلق الأحد خلق الواحد فضرب مثالا للأحادية بالواحدية (وكل ما خلق الله مجاز وتمثيل إذ لا حق غيره هو) .

ويعبرون بلغتهم الإشارية الرمزية عن هذا الخلق الأول قائلين :
لما شاء الحق تعالى من حيث أسمائه الحسنى أن يرى أعيانها في
كون جامع يحصر الأمر كله ويظهر به سره خلق الواحد . .

فالواحد إذن هو الذى ستتجلى فيه جمعية الأسماء والصفات . .
وقد اختلفت تسمية هذا الواحد بين الصوفية والفلاسفة . . فقال الصوفية
هو النور المحمدى وقالوا هو الحقيقة المحمدية وقالوا هو الخليفة وقالوا
هو ظل الله وقالوا رمزاً هو القلم (الذى سيسطر كل شيء وتسيل منه
كل الكلمات) وأشاروا له بأوصاف . . مثل . . جوهرة الكثر اليتيمة . .
وشمس التجليات . . وفرد الذات . . والبرزخ الجامع . .

وأشاروا إليه بالحروف فقالوا هو (س) السر الصادر عن (م)
الأمر .

وقالوا هو الإنسان الكامل .

وقال الفلاسفة هو العقل الكلى .

وقالوا هو التعين الأول .

وحجة الصوفيين الذين قالوا إن أول ما خلق الله النور المحمدى

أو الحقيقة المحمدية . . هي الكشف والعلم اللدني والحديث الشريف .
والقرآن .

وفي الحديث الشريف للصحابي جابر .

« أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر » .

وفي رواية أخرى .

« أول ما خلق الله نوري » .

وفي حديث آخر صحيح .

« كنت نبياً وآدم يحدل في طينته » .

وفي القرآن يقول الحق تعالى لرسوله :

« وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

(الأنبياء : ١٠٧)

وفي كلمة العالمين إطلاق في الزمان والمكان .

كما يقول له أيضاً :

« فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

(النساء : ٤١)

فجعله شاهداً على جميع الأمم من بعده ومن قبله وهذا لا يكون

إلا بوجود له سابق ممتد وحضرة سابقة لها مشهد دائم .

وهو أمر لا غرابة فيه . . فقد أمهل الله إبليس وهو رسول الشر حينما

طلب إبليس منه الإمهال قائلاً :

« رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » .

(الحجر : ٣٦)

فأجابه إلى طلبه وقال له :

« فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

(الحجر : ٣٧ ، ٣٨)

وبذلك جعل له وهو رسول الشر حضرة دائمة إلى يوم القيامة ،
فلا غرابة أن يجعل لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو رسول الرحمة
حضرة دائمة .

بل هو الأمر الطبيعي الذي لا يرفضه العقل ولا تأباه الشريعة
على اعتبار أن الحضرة السابقة للنبي عليه الصلاة والسلام كانت
حضرة نورانية روحية بمثل ما كانت حضرة إبليس حضرة ظلمانية ،
وباعتبار أن كليهما عبد الله لا تخرجه عن عبوديته هذه الديمومة .

والشهداء لا يموتون ولا يصح أن تقول إنهم قتلوا فهم أحياء عند ربهم
يرزقون . والصديقون والأنبياء أعلى من الشهداء رتبة . . وخاتم الأنبياء
هو أعلى الكل وسيد الخلق فحياته الدائمة وحضرته الروحية بين يدي
ربه أولى .

وهذا التعظيم للرسول عليه الصلاة والسلام لا تحظره شريعة طالما
أنه لا يدعى له ربوبية ولا يخرج من عبوديته وعن كونه مخلوقاً لله . .
وهو ما اتفق عليه الكل فهو الغبد الكامل والمخلوق الأول الذي لا يتجاوز
حدود عبوديته وافتقاره قيد شعرة ثم حجة الحجج وبرهان البراهين
عندهم في النهاية هو الكشف وشهود الأمر على ما هو عليه ورؤية هذه
الحضرة المحمدية وتناول الفتح منها (باعتبارها الباب إلى رضى الله
ونوره) .

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .
(آل عمران : ٣١)

« مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .

(النساء : ٨٠)

ويذكر القرآن الخمسة الصفوة من أولى الغزم من الرسل فيجعل
محمداً عليه الصلاة والسلام أولهم فيقول له :
« وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَأَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً » .

(الأحزاب : ٧)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ .

(النساء : ١٦٣)

ويقول القرآن آمراً الناس بالعمل :
« وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(التوبة : ١٠٥)

ومعنى ذلك أن رؤية الرسول والمؤمنين للأعمال وشهود الرسول لما
سوف يجري في أمته هو أمر حادث وقائم في الدنيا لأن الآية تتكلم بعد
ذلك عن البعث فتستطرد مردفة :

« وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

(التوبة : ١٠٥)

فالرؤية الأولى غير تلك الرؤية . .

وهي إشارة إلى رؤية حاضرة وشهادة حاضرة للرسول عليه الصلاة والسلام . . من قبل البعث ومن قبل أن يقوم الأَشهاد .
والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر في الرؤيتين . . وشاهد في الرؤيتين .

وهذا يدل على مقامه العظيم في الدنيا والآخرة وقد جاء في صريح القرآن .

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .
(الأحزاب : ٥٦)

ونعود إلى ترتيب الخلق فنقول إن أول ما خلق الله هو النور المحمدي عند الصوفية وعند الفلاسفة العقل الكلي ثم يلي ذلك خلق النفس الكلية (ويشار إلى العقل الكلي والنفس الكلية بالقلم واللوح) ومن العقل الكلي والنفس الكلية تأتي الطبيعة السارية في الوجود (الهيولا عند أرسطو والنفس الرحمانى عند الصوفية) ثم من ذلك النفس الرحمانى السارى تتولد الكلمات الإلهية فتتجسم الأشياء فوراً وفق الكلمات على مثال كن فيكون ، فيظهر الجسم الكلي للكون في البداية وهو الهباء أو الدخان ثم يظهر العرش ثم الكرسي ثم تتفصل الأفلاك ثم العناصر ثم المولدات من نبات وحيوان ثم الإنسان وهو آخر ما يظهر في سلسلة المخلوقات بالكلمة والجسد . وهو برغم ذلك أول ما خلق فيها بالروح وهو ما أسميناه في البداية بالواحد أو الإنسان الكامل .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

(التين : ٤ ، ٥)

والإنسان عند العارفين هو جمعية ملخصة للوجود كله فهو مثل الكتاب الجامع والكون أشبه بصفحات ذلك الكتاب . مفرقة فنحن نجد في الإنسان عقلاً جزئياً في مقابل العقل الكلى الكونى كما نجد نفساً جزئية تقابل النفس الكلية الكونية . . ثم دماغه يقابل العرش وصدره يقابل الكرسي وأعضاؤه وبحواس التي تدبرها تقابل الأفلاك والأبراج والملائكة التي تدبرها .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد .
ويقول الشاعر الصوفي :

كل الجمال غداً بوجهك مجملاً

لكنه في العالمين مفصل

وللصوفيين في ذلك شطحة . . فهم يقولون :

بمثل ما تكون تعلقاتك في الدنيا تكون تعلقاتك في الآخرة فإذا عشت عبداً لأعضائك وحواسك وشهواتك ولم تستطع الخلاص من أسرها فمصيرك في الآخرة أن تقع في أسر الأبراج النجمية والملائكة المدبرة لها (وهى الزبانية التسعة عشر التي ذكرها القرآن) حيث تخلد أسيراً لنيرانها أبداً . . لأن إزالة التعلقات بعد ضياع الآلات (بعد الموت) من المحالات .

والأبراج وملائكتها المدبرة هى التي تقع في مقابل الأعضاء وحواسها المدبرة في الكتاب الجامع الملخص الذى اسمه الإنسان .

وكل حقيقة في الدنيا تقابلها حقيقة في الآخرة . . هنا أنهار وهناك أنهار ، هنا فواكه وهناك فواكه . . هنا مآكل ومشارب وهناك مآكل

ومشارب . . هنا نار وهناك نار . . مع فارق شاسع وأى فارق .
« وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » .
(الإسراء : ٧٢)

والتفاوت في المراتب هنا يقابله تفاوت أكبر هناك .
« وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا » .

(الإسراء : ٢١)

ثم التناظر بين الإنسان والكون والتقارن بين الدنيا والآخرة وتقابل
الحقائق بين الذرة والمجرة وتشابه المناظر بين الخلية في ورقة نبات والخلية
في قلب سبع . . وسبب هذا التشاكل العجيب أنها جميعاً تجليات ذات
إلهية واحدة وصناعة قدرة إلهية واحدة .

وكل هذه المراتب الوجودية هي في المصطلح الصوفي والقرآني
ظهورات أو تجليات أو تنزلات أو خلق أو إبداع من المبدع صاحب
الكنوز التي لا تنفذ . . الذات الإلهية الملهفة بغيب الغيب .

وظهور الله عند الصوفية هو عين اختفائه لأنه جعل من هذه
المظاهر المتعددة حجاباً على وحدته كما جعل من الأسباب والقوانين
حجاباً على مشيئته . . كما جعل من ملوك الأرض الصوريين حجاباً
على حاكميته الحقيقية .

يقول المكزون السنجاري عن هذه الذات المبدعة الملهمة .
هي التي باختفائها ظهرت وكان عنا السفور يخفيها
وحجب الكثرة تحجب عين الغافل ولكنها تشف وتشف عن الأحدية
الباطنة فيها أمام عين العارف الذاكر .

وعدم البعث واستمرار الموت عند المكزون أمر محال على الله بحكم
كرمه وجوده ، فالكريم لا يسلب هبته ولا يسترد عطيته أبداً . . وإذا
استردها فليعطى أعظم منها . . فما أخرجه الله من العدم بجوده وكرمه
يستحيل أن يرجعه عدماً .

فناؤنا مع بقاء واهبنا يقضى بنكت الكريم في سب
وذاك بخل وجل خالقنا عن أن يكون التقير في صفته
وهو محال على الإله الذي كل ليب زكا بمعرفته
وهذا هو حسن الظن بالله الجدير بالموثق حقاً .

ولأن الفاعل المطلق (الله) لا بد له من قابل مطلق (الكون
والمخلوقات) . . والوجود لا بد له من مجال عدمي يعمل فيه . . يقول
ابن عربي في غرور ودلال عجيب متحدثاً عن ربه .

فأعطيناه ما يسدو به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسوماً بإيائنا وإيانا
فيجعل نفسه مقاسماً لربه في عملية الخلق وهي شطحة فيها دلال
ولا شك أن هناك تعدداً ملحوظاً للخالقين . . فالموسيقار يخلق والنحات
يخلق والمهندس يخترع والمسيح يصور من الطين كهية الطير ويتفخ
فيها فتكون طيراً بإذن الله ، والملائكة تبداع والأسماء الإلهية تصور ،
فهناك تعدد للخالقين ولكن الكل يخلق بقدرة الله وإذنه وإلهامه . .
والله فوقها جميعاً وأحسنها جميعاً وهو بذاته القوة المبدعة فيها .
« فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(المؤمنون : ١٤)

فاعترف القرآن بتعدد الخالقين ولكنه قال إن الله أحسنها . . . لأنه
يخلق بذاته دون حاجة إلى إلهام من أحد أو إذن من أحد . ولأنه يخلق
على غير مثال سبق . . . بينا الكل يخلق من نموذج أو تعليم أو فكرة مستوحاة
ويخلق من مادة مخلوقة سلفاً . . . ثم إن الكل مستمد منه لا يخلق إلا به .
أما هو فهو الوحيد الخالق بذاته المستغنى بذاته فلا تجوز هذه الشطحة
من ابن عربي بأن الله (الوجود) محتاج إلى العدم أو أنه مقاسم للعدم
في عملية التكوين فتلك شطحة خرجت من ابن عربي الشاعر وليس
من العارف .

الفصل الخامس

السير إلى الله





كل شيء في الكون في حالة حركة وسير . . من الذرة إلى المجرة . .
ومن البعوضة إلى الإنسان .
« كُلُّ شَيْءٍ يَمْجِرُ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى » .

(الرعد : ٢)

« وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » .

(يس : ٤٠)

ذلك السبح الدائم المستمر هو سمة الكل . . تشهدا في الميكروب
المتناهي الصغر وتشهدا في سبح النجوم في السموات .
هي طبيعة . .

وطبيعة الحركة في الكون تشير إلى هدفه كلية تثير العقل والتفكير .
يقول أينشتاين : إن الله لا يمكن أن يكون لاعباً نرداً بالكون .
ويقول القرآن :

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ » .

(الأنبياء : ١٦)

هو إذن قانون وناموس ونظام مقرر وليس لعباً والإنسان ضمن هذه المنظومة الهائلة المتحركة يتحرك هو الآخر ولا يكف عن السير . . وإذا كنا لم نستطع أن نكتشف إلى الآن القانون الموحد لحركة الكون (هو في نظر أرسطو سير إلى الله) فتحزن نعلم على الأقل قانون حركتنا نحن البشر . وأنا منطلقون بشوق لا يهدأ نحو بلوغ الكمال والمثل الأعلى . . وليس المثل الأعلى ولا الكمال المطلق إلا الله :

« وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

(الروم : ٢٧)

فتحن سائرون إلى الله أدركنا ذلك أم جهلنا وآمنا أم أنكرنا . . الكل سائر طوعاً أو كرهاً .

« يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ » .

(الانشقاق : ٦)

والعارف هو الذى يدرك ذلك ويسعى إليه اختيارياً ويباشره بوعى وقصد ذلك هو العارف الكامل الذى اختار السير بكرامة على السير بالعصا .

ومن هؤلاء من يسير هرولة .

ومنهم من يسير وثباً .

ومنهم الطائر الذى اكتشف أن الاستقامة أقصر الطرق وأن الصراط المستقيم أقصر المخطوط إلى مولاه . . وهؤلاء هم أهل الله الذين خلعوا قُمَصَ التأجيل وشمروا السواعد وكسبوا أعمارهم بالموافقة ، ولم يضيعوها في المخالفات .

ونسمع من هؤلاء ما يقولون عن طريق السير ومنازله وعلاماته ومنهجه .

ونختار واحداً من عظام المهاجرين إلى الله هو الصوفي العارف محمد
ابن عبد الجبار بن الحسن النفري (وهو الذي كتبت عنه كتابي رأيت
الله) يقول النفري إن مبتدأ الرحلة هو خلع النعلين :
« فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى » .

(طه : ١٢)

والنعلان هما النفس والجسد .

والمعنى المراد هو التجرد (التجرد عن النفس والجسد والانخلاع من
النفس والجسد) .

يقول له ربه :

« أنا الله لا يدخل إلى بالأجسام » .

كيف تخرج من جسمك وأنت في جسمك ؟ وكيف تخرج عن
نفسك وأنت في نفسك دون أن تقع في رهبانية خاوية وزهد فارغ مبتذل ؟ !
هذه رحلة النفري الغريبة والمثيرة .

وأول انخلاع لك عن نفسك وجسدك هو توبة من جميع الذنوب
والمخالفات . . توبة نصوح واستغفار صادق وتوجه سليم لا غرض فيه
سوى بلوغ الحق لوجه الحق . . ثم تأخذ أول قطار . . فلا بد لكل
رحلة من قطار . وأول قطار هو العلم .

والعلم عند النفري مطية ودابة تركيبها لهدفك والخطر كل الخطر أن
ركبك هي وتقودك وتجعل من نفسها هدفاً لك .

والعلم لا يصلح هدفاً (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن
لأشياء وروابطها وعلاقاتها) وذلك هدف المحجوبين من العلماء الذين

وقفت همتهم عند إدراك الأشياء وعلاقاتها . . وهم الذين قال عنهم القرآن :
« يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .
(.الروم : ٧)

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أخرى
هى المعرفة .

والمعرفة عند النفرى غير العلم ، فالعلم تنتهى حدوده عند إدراك
الجزئيات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التى تربطها .
ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحى منها والميت مخلوقة
من خامة واحدة ومركبة بخطوة واحدة فكلها بدأت بذرة بسيطة هى ذرة
الأيديروجين ، انفطرت وأعيد تركيبها داخل الأفران النجمية الهائلة إلى
عديد من التواليف هى ذرات العناصر الـ ٩٣ ومن أحد هذه العناصر ،
وهو الكربون نشأت المادة الحية ومنها جاءت عائلة الأحياء كلها .

ثم إن هذه الأحياء من نبات وحيوان وإنسان بنيت أيضاً بخطوة واحدة
وأسلوب واحد فهى من خلايا متشابهة فى الجميع تتنفس وتتكاثر
وتتحرك وتتغذى وتطرد مخلفاتها بطرق واحدة وبأعضاء متشابهة وأجهزة
متشابهة وقوانين متشابهة ، ثم هى تموت وتتعمن وتحلل إلى تراب بتحويلات
كيميائية واحدة .

وإذا كان الكون بكافة صوره وتواليفه مخلوقاً من خامة واحدة على
مقتضى خطة واحدة وأسلوب واحد وقوانين واحدة . . فخالقه بداهة لا بد
أن يكون واحداً .

وهذا منتهى ما توصلنا إليه رحلة العلم .

ونشد رجالنا بعد بلوغ هذا المدى إلى ذلك الواحد محاولين أن ندركه .
وهنا نكتشف ان دابة العلم لم تعد تصلح لسلوك باقى الطريق ،
فنحن أمام حقيقة لا يمكن إدراكها بالحواس ولا رصدها بالمجهر ولا
قياسها بالبرجل .

إن الواحد الذى نطلبه هو فوق إدراك وسائل العلم ومتعال على
الحواس ، وهو من وراء الأسماع والأبصار .

وهنا لابد أن نغير المطية ونستبدل المواصلات ونودع قطار العلم ،
فلن يعود للعلم جدوى فسوف نخرج من عالم الجزئيات من عالم الأشياء
(عالم الملك والملكوت) إلى عالم الكلّيات وهو العالم الإلهى (الجبروت) .
ولن تجدى الحواس ولا المنطق العقلى ولا التحليل العقلى ولا الأدوات
المعملية فى إدراك العالم الإلهى فلا بد من الخروج من ذلك القطار العاجز
الذى اسمه العقل والمنطق العقلى والحواس الخمس ، ومن العلم ووسائله
ومختبراته إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . المعرفة . . ويفرق بين العلم
والمعرفة بأن العلم يبحث فى الكون ، والمعرفة تبحث فى الكون . . العلم
بحث فى الأشياء المتعددة ، والمعرفة تبحث فى الواحد . . العلم يبحث
فى المادى ، والمعرفة تبحث فى الغيبى . . ولهذا كانت وسائل العلم :
المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب والحواس الخمس والتحليل العقلى ،
أما وسائل المعرفة فهى القلب والبصيرة والوجدان الصوفى .

ولا يمكن البدء فى رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقيوده
وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية ، وهذا يستلزم التجرد من
العالم المادى كله .

ولكن العالم المادى هو معشوق النفس ومجاها .
وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا
العالم المادى وحيارته وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها
ولهذا كان لا خروج من أسر الحواس ولا خروج من حدود العقل
ولا خروج من سيطرة العالم المادى إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها
وإخضاعها وتكميمها وقيادتها .
وهو ما يسميه النفرى بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ،
ويلخص هذا العبور فى كلمات قليلة بليغة .
اخرج من نفسك ، اخرج من همك ، اخرج من علمك ، اخرج
من عملك ، اخرج من اسمك ، اخرج من كل ما بدا (أى من مغريات
العالم المادى كله) .
وماذا بعد ذلك .
يكون مطلوبك هو الله .
ومقصودك هو الله .
وهمك هو الله .
وذكرك هو الله .
ونطقك هو الله .
وفكرك هو الله .
وتلك أمور لها علامات ولا تكفى فيها الخلوة والتساوىع .
فعلامه خروجك عن نفسك أن تبدلها للآخرين إنفاقاً وعملاً صالحاً
وبراً ومودة وجهاداً وقتالاً واستشهاداً فى سبيل الله .

وعلامة خروجك عن علمك ألا تقول أنا عرفت أنا اكتشفت أنا وصلت ، وإنما تقول الله عرفني كذا . . الله أفهمني كذا . الله ألهمني كذا .
وعلامة خروجك عن عملك ألا تقول أنا عملت أنا أنجزت أنا بنيت أنا أنشأت ، وإنما تقول إن الله وفقني إلى كذا وأعانني على كذا وساعدني على كذا .

وعلامة خروجك عن اسمك ألا تجرى خلف شهرة ولا تسمى إلى منصب ولا تطلب جاهاً ولا تلمس لنفسك تميزاً وتسليطاً على الآخرين .
وعلامة خروجك عن المغريات المادية ألا تعود للفتنة والملذات سلطة عليك وأن تلزم الطاعة والمنهج والشرعية لا تعداها إلى شبهة أو حرام .
وعلامة طلب الله ذكراً وفكراً هي الاجتهاد في العبادة والإقبال عليها حتى تصبح العبادة هوى لا تكليفاً .

وهذا السلوك هو عدتك ووسيلتك لتنوير بصيرتك لتصبح قادراً على تحصيل المعارف الجديدة عن الله وقابلاً للتلقى منه والهمم عنه .
لا بد لك من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم وبدون سلوك لا معرفة .

ويقول الصوفية في لغتهم إن هذا السلوك ضروري لإعداد المحل وذلك بالتخلية والتحلية ، (تخلية القلب من الأخلاق الذميمة وتحليته بذكر الله) وبذلك يصبح المحل قابلاً وصالحاً لتلقى الإشراقات والمعارف الإلهية .
والبحث في الله يبدأ بالبحث في الأسماء والصفات^١ والأفعال ، ثم ينتهي إلى الذات فلا فعل للأسماء الإلهية ولا للصفات الإلهية إلا بالذات الإلهية .
الذات هي التي لها القيومية والصمدية والأحادية والاحقية ، ها

يكون للأسماء وجود وأثر .

وما الأسماء إلا متعلقات الذات وهى من قبيل الوجود الممكن ، أما الوجود الواجب الحق فهو للذات وحدها .

وببلوغ رحلة المعرفة إلى الذات تنتهى المعرفة إلى العجز كما انتهى العلم إلى العجز من قبل ، ويدرك العابد عجزه وحيرته كما يدرك أن عجزه عن الإدراك هو عين الإدراك ، فهو أمام ما ليس كمثله شئ .
وهنا يلزم تغير المطية واستبدال المواصلات .

يلزم الخروج من المعرفة كما خرجنا من العلم إلى مرحلة جديدة يسميها النفرى . . الأدب . . ويسميها فى مكان آخر . . الوقفة . . حيث لا سبيل إلى انتقال . . وحيث انتهى الطريق إلى الغيب المطلق .
وهنا يقول النفرى إنه يلزم الخروج من الحرف ومن كل ما يحتوى عليه الحرف (الحرف يحتوى على كل العلوم والمعارف والخواطر والعبارات والمعانى) .

اخرج من الحرف والمحروف .

وبخروج العابد من الحرف والمحروف يخلو قلبه من الخواطر والعبارات والمعانى والحقائق الحسية الأرضية بأكملها ويتطهر ليتجلى الله عليه .
وهنا تأتى مرحلة الرؤية . . والحضرة . . والتجليات فى هذه الحضرة مما لا يقال . . ومما لا يوصف بعبارة .

ولا مدخل إلى هذه الحضرة إلا بخلع النفس تماماً .

ويقول الله لعبده فى تلك اللحظة من التجرد الكامل :

ليس بينى وبينك أنت .

ليس بينى وبينك بين .

أنت منظرى .

لا ستور مسدلة بينى وبينك .

أنت تلىنى وكل شىء فى الكون يأتى بعذك .

أنت فى هذا المقام لا يستطيعك الكون ولا تقوى عليك جنة ولا نار .

وهو مقام الخلافة العظمى التى يكون فيها للعبد ربانية على الأشياء . .

ويكون هو العبد الربانى الذى قال عنه القرآن .

« وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » . (الأنفال : ١٧)

ويقول عنه فى الحديث القدسى :

« عبدى أظعننى أجعلك ربانياً ثقل للشيء كن فيكون » .

وفى حديث قدسى آخر .

« تسمع بسمعى وتبصر ببصرى وتبتطش بىدى » وهو مقام عيسى

عليه السلام حينما أحيا الميت بإذن الله ، وحينما نفخ فى الطين ليكون طيراً

فكان طيراً بإذن الله .

ومقام محمد عليه الصلاة والسلام حينما رمى برمية الله (وما رميت

إذ رميت ولكن الله رمى) ويقول النفري إن العبد يفعل فى تلك اللحظة

بذات الله لا بذاته ، فقد غاب عن ذاته وقمعها وأسكتها وردها لخالقها .

ولهذا يعتبر النفري أن الخروج من النفس ومن أسر العقل هو الخروج

من الخطر ويقول له ربه وقد خرج من الاثنين .

لقد خرجت من الخطر :

ولا خروج من العبودية أبداً خلال هذه المراحل ، وإنما هناك مزيد من

العبودية في كل مرحلة .

وفكرة العبد الرباني عند النفرى لا تعنى أبداً أى خلط بين العبودية والربوبية ، ولا تعنى خروج العبد من عبوديته ، ولا تعنى إضفاء صفة الخالق على المخلوق في ذاته . وإنما هو فضل من الله وقوة يفيضها الله على العبد المقرب بإذنه .

يقول الله لعيسى :

« وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي » .

(المائدة : ١١٠)

فكل ما يحدث إنما يحدث بالإذن الإلهي . . ولا يصح أن نخلع عن العبد عبوديته أبداً إنما هو مجرد ارتفاع إلى رتبة شرفية من رتب العبودية تتم فيها الخلافة ويصبح العبد فيها خليفة حقاً وحاملاً لأختام الملك ومنهذاً للأوامر بإذنه وهذه هي مرتبة العبد الرباني .

وهذه الحالة من القرب من الله (حالة قاب قوسين أو أدنى) هي حالة غيبوبة وذهول تتوحد فيها الجوارح فيصير سمع العارف بصره وعينه أذنه ويعود أوله آخره وآخره أوله وينشق عن جسده الضريح وتتروحن جميع أعضائه وخلاياه ويلطف ويختفي ويصبح نوراً في نور . . وهي حالة من الصفاء والتورانية والعلوية تسكر صاحبها وتذهله فيخيل إليه أنه الله . ومن هنا جاء هذا التخليط والشطح الذي امتلأت به كتب الصوفية والكثير العجيب مما نطقوا به في تلك الحالات .

« سبحانى ما أعظم شأنى » البسطامى .

« أنا الحق » . . « أنا الله » . . « ما في الجبة إلا الله » العلاج .

« إذا عرفت الله فما عرفت سواك » ابن عربي .

« هل في الدارين غيري » الشبلي .

أأنت أم أنا هذي العين في العين حاشاي حاشاي من إثبات اثنين

ابن عربي

« لا فرق بيني وبين ربي إلا أنني تقدمت بالعبودية » .

« أنا أصغر من ربي بسنتين » .

وكل هذا وأمثاله هو من صنوف التخليط والهذيان مما لا يصح الوقوف عنده . . وقد أدانه أصحابه فقال ابن عربي عن هذا الكلام إنه سوء أدب وسقوط عن رتبة التمكين ، واستعاذ بالله من الخذلان وسوء الخاتمة . . وتبرأ في مقدمة الفتوحات من أي كلمة تخرجه عن العبودية والافتقار والذل والمسكنة لربه . . وتبرأ مماماً من أي قول بالحلول أو الاتحاد أو التجسد .

وللمكزون السنجاري أشعار غريبة عن هذه الحالة النورانية التي ذاقها . . فنراه يقول :

صفا جسدي حتى بدا منه قلبه	وشف إلى أن بان ما فيه من سر
فغيب سر القلب قلبي وقالبي	كما غاب لون الماء والكأس في الخمر
ويقول :	

فصار بسط الوري بقبضي	والخلق والأمر في كياني
فلا وجود سوى وجودي	وكل باق سوى فاني

ويقول :

أصبحت في الكون بلا حيزٍ وكل ما في الكون في حيزي
وخارج العالم في داخلي وقدرة القادر في معجزتي
فأين أهل الأين في دارتي والفلك الأطلس في مركزي

ويقول عن محاورة غريبة مع ربه :

ولقد بأسطني في خلوة أصبح البسط بها في قبضتي
فشهدت النشأة الأولى بها فانتفى عني المرا في نشأتي
وتفاوضنا حديثاً حسدت كل أعضائي عليه أذني
قلت هل عودا لأعياد الصفا ؟ قال كي تقضى وتقضى أجلى
قلت كي تشتفى الآلام من جسدی ؟ يشفى فؤادی ؟ . . قال كي
قلت بعد القرب ما أبعدني عنك .. ؟ قال الشك والرد على

وما ورد في كتب الصوفية من أشعار ومواجيد عن هذه الحالة كثير .

وتواتره وتشابه ما فيه من أوصاف يدل على أن هذه الحالة من القرب من
الله تصاحبها نشوة عظمى بالفعل . . وإن هذه النشوة تذهب اللب
وتسلب العقل وتخرج العارف عن صوابه .

والنظرة السليمة إلى هذا التراث الشعري . . أن نقرأه كوجدانيات
لا كحقائق عرفانية . . إذ لا توجد لغة متاحة ولا عبارات تسمح بأي وصف
عرفاني حقيقي . . فالموقف قد تجاوز قدرة الحرف والرمز والمجاز والإشارة .
وبلغ حالة البهت والذهول .

ونحن لا نحاسب العاشق محاسبة علمية عرفانية حينما يقول لحبيبه
في لحظة وجد . . أنا أنت . . كما وأنا لا نحاسب الشاعر حينما يقول .

شعرت أنى عصفور . . أو أتى شمس أو أنى جبل .
ومشكلة الصوفى أنه فنان إلى جانب كونه رجل دين . . وهو بحكم
تكوينه الوجدانى شاعر وأديب وصاحب خيال وعاشق له بدوات . .
وهو أحياناً فيلسوف أيضاً مثل ابن عربى . . وهذا سر الكثير من الغموض
والشطح والاستشكالات المعضلة فى كتب الصوفية .
والقارئ يجد نفسه فى أغلب الحالات أمام موازين ذوقية لا موازين
علمية وأمام أمور لا تفهم إلا مكابدة .
ولهذا سوف تظل كتب الصوفية رسائل خاصة أشبه بالرسائل الشفوية
يتخاطب بها قوم من أهل الأذواق والمواجيد إلى خاصتهم ممن يفهمون عنهم
الإشارات والرموز .
اسمع من المكزوب يروى لك الوسيلة التى وصل بها إلى الله فيلخص
أسرار الطريق فى كلمات .
« خوف من عالم الحس ومحاربة لشیطان النفس وقرع بيد الإخلاص
من أبواب اللطف الخفى » .
ما هو ذلك القرع بيد الإخلاص . وما أبواب اللطف الخفى
تلك لغة القوم العالية الجميلة التى لا يفهمها إلا من كابد مثلهم
وأحب مثلهم .
وما أجملها من لغة وما أحفلها بالظلال والمعانى والأغوار البعيدة
والهمس الحميم الموحى .
جعلنا الله من أهل هذا الحب السامى ومن أهل تلك الأشواق
الرفيعة القدسية

الفهرس

الصفحة

الفصل الأول :

التعرف على ملك الملك

٥

الفصل الثاني :

الوجود كله لله

٢٣

الفصل الثالث :

توحيد أهل الأسرار

٤٣

الفصل الرابع :

الوجود والعدم

٥٩

الفصل الخامس :

السير إلى الله

٧٩

صدر للمؤلف

- | | | |
|---------------------------------------|---------------|----------------------------|
| ٢٤ - مغامرة في الصحراء : ١٩٦٩ | ١٩٥٥ : | ١ - الله والإنسان |
| ٢٥ - المدينة (أوحكايات : ١٩٥٦ - ١٩٦٨ | ١٩٥٤ - ١٩٥٢ : | ٢ - أكل عيش |
| مسافر) | ١٩٥٧ - ١٩٥٥ : | ٣ - عنبر ٧ |
| ٢٦ - اعترفوا لي : ١٩٥٦ - ١٩٥٩ | ١٩٦٤ - ١٩٦٢ : | ٤ - شلة الأنس |
| ٢٧ - ٥٥ مشكلة حب : ١٩٦٠ - ١٩٦٦ | ١٩٦٦ - ١٩٦٥ : | ٥ - رائحة الدم |
| ٢٨ - اعترافات عشاق : ١٩٥٦ - ١٩٦٦ | ١٩٥٨ - ١٩٥٧ : | ٦ - إبليس |
| ٢٩ - القرآن محاولة لفهم عصري : ١٩٦٩ | ١٩٥٩ - ١٩٥٨ : | ٧ - لغز الموت |
| ٣٠ - رحلتى من الشك إلى الإيمان : ١٩٧٠ | ١٩٦٧ : | ٨ - لغز الحياة |
| ٣١ - الطريق إلى الكعبة : ١٩٧١ | ١٩٦١ : | ٩ - الأحلام |
| ٣٢ - الله : ١٩٧٢ | ١٩٦١ : | ١٠ - أينشتين والنسبية |
| ٣٣ - التوراة : ١٩٧٢ | ١٩٦٦ - ١٩٦١ : | ١١ - في الحب والحياة |
| ٣٤ - الشيطان يحكم : ١٩٦٥ - ١٩٧٠ | ١٩٦٦ - ١٩٦١ : | ١٢ - يوميات نص الليل |
| ٣٥ - رأيت الله : ١٩٧٣ | ١٩٦٠ : | ١٣ - المستحيل |
| ٣٦ - الروح والجسد : ١٩٧٣ | ١٩٦٤ : | ١٤ - الأفين |
| ٣٧ - حوار مع صديقي الملحد : ١٩٧٤ | ١٩٦٥ : | ١٥ - العنكبوت |
| ٣٨ - الماركسية والإسلام : ١٩٧٥ | ١٩٦٥ : | ١٦ - الخروج من التابوت |
| ٣٩ - محمد : ١٩٧٥ | ١٩٦٦ : | ١٧ - رجل تحت الصفر |
| ٤٠ - السر الأعظم : ١٩٧٥ | ١٩٦٣ : | ١٨ - الإسكندر الأكبر |
| ٤١ - الطوفان : ١٩٧٦ | ١٩٦٣ : | ١٩ - الزلزال |
| ٤٢ - الأفين . سيناريو : ١٩٧٦ | ١٩٦٤ : | ٢٠ - الإنسان والظل |
| ٤٣ - لماذا رفضت الماركسية : ١٩٧٦ | ١٩٦٨ : | ٢١ - غوما |
| ٤٤ - من أسرار القرآن : دراسة . : ١٩٧٦ | ١٩٧٣ : | ٢٢ - الشيطان يسكن في بيتنا |
| ٤٥ - الوجود والعدم : ١٩٧٦ | ١٩٦٣ : | ٢٣ - الغابة |

مجموعات المؤلف الكاملة

- ٤٦ - قصص مصطفى محمود : صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٧ - روايات مصطفى محمود : صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٨ - مسرحيات مصطفى محمود : صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٩ - رحلات مصطفى محمود : صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- ٤٧ - روايات مصطفى محمود : صدرت في بيروت عام ١٩٧٢ .
- حازت رواية « رجل تحت الصفر » على جائزة الدولة لعام ١٩٧٠



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية



0228111

To: www.al-mostafa.com